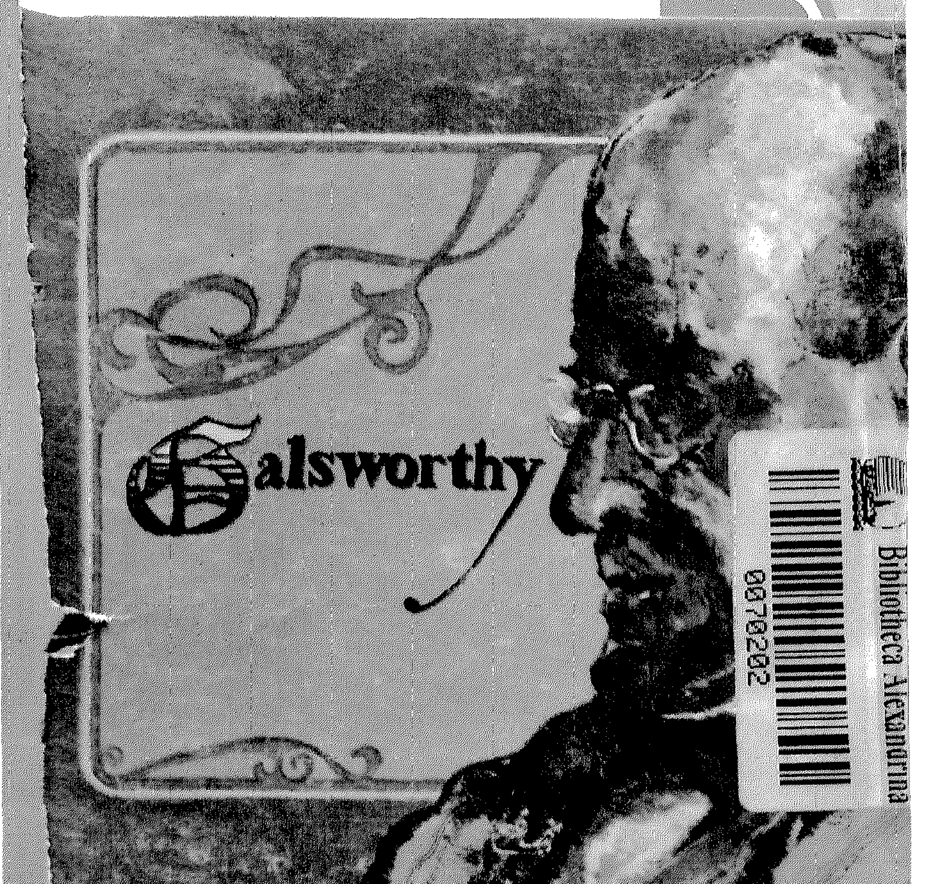
اقرأ

رشدى السيسى

جولزوردى

عدو الطغاة . حياته وأدبه





تصدر فى أول كل شهر

رئيس التحرير : أنيس منصور



دار المعارف بمصر



رشدى السيسى

جولزوردى

عدو الطغاة . حياته وأدبه

اقرأ ٤٢١

دار المعارف بمصر

(اقرأ - ٤٢١)

الناشر : دار المعارف بمصر - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

مقدمة

عن أدب جلزورذى ومسرحياته

بقلم

الأستاذ الباحث أحمد خاكى

دفع إلىّ الأستاذ رشدى السيسى بأصول كتابه عن جون جلزورذى قائلا : « انقده . . . ولا تجعل دراستنا أو حبنا المشترك لهذا الرجل العظيم ، عدو الطغاة ، سبباً فى الرفق بكتابى أو الثناء عليه » ولكنى طالعته منتشياً ، لما أثاره فى نفسى من ذكريات عن هذا الكاتب الكبير ، وحالما انتهيت من مطالعته رحت أثبت بعض هذه الذكريات فى نقاط أجملها فيما يلى :—

١ — مكانة جون جلزورذى فى الأدب الإنجليزى فى مبدأ القرن العشرين .

٢ — خصائص جون جلزورذى الأدبية .

٣ — فن جون جلزورذى المسرحى

* * *

حين آذن القرن التاسع عشر بالانتهاء كان للمجتمع الإنجليزى سمات معينة من المعتقدات والآراء ، درج المؤرخون وخبراء علم الاجتماع على تسميتها « بالمجتمع الڤيكتورى » ، وهو مجتمع محافظ تميز بالإيمان والتمسك ببضعة من المثل التى توهم الجميع أنها لابد باقية إلى الأبد .

وكانت هناك الإمبراطورية الشاسعة ، والدستور البريطانى ، والمدرسة العامة ، وحياة الأسرة ، والدين ممثلا فى الكنيسة ، وكلها أمور نظر إليها الإنجليزى فى العصر الفكتورى كأنها قمة التقدم فى تاريخ الخليقة ، واعتقدوا أنه لم يعد ثمة ضرورة أو مجال لتطورها ، إذ آمنوا بها وأخذوها على أنها قضايا مسلم بها لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ، وهكذا أصبح المجتمع مسوقاً فى كل هذه الشئون بالعرف والتقاليد والقوانين الوضعية يمثلها أصحاب السلطة ، حتى أصبح للمعلم والقاضى والقسيس كل الوزن فى التحكم فى هذا المجتمع .

* * *

وإذا كان الأدب ظاهرة اجتماعية فقد كان أدب العصر الفكتورى ، فى أكثر نواحيه ، مرآة لهذا الذى ذكرت ، فقد كان الأدب يؤيد هذه الأمور التى آمن بها الإنجليز إيمانهم بالله تعالى ، ولم تكن الروايات ولا القصص ولا الشعر فى العصر الفكتورى — فى أكثر الأحوال — إلا تعبيراً عن التمسك بهذه المعتقدات ، فكثيرون من الكتاب لم يزيدوا على أن يصفوا حياة الواقع التى كان يعيشها الدهماء . والفلسفة السياسية حتى عند قيام الاشتراكية كانت تتجه نحو الرجوع إلى القانون وحماية الدستور ، كذلك كان نوع التعليم الذى يلقنه الإنجليز لأبنائهم بدفعهم إلى الاستعلاء على غيرهم من أبناء المستعمرات ، بينما كان الاقتصاد يكبل النزعات الاشتراكية بقيود الرأسمالية ، وصفوة القول إن المجتمع كان ينصت دائماً إلى صوت السلطة : إلى صوت هؤلاء الذين ارتفع بهم النظام إلى مكان الحكم أو إلى

صوت أولئك العلماء والأدباء الذين تتجه بحوثهم وكتاباتهم إلى تأييد كل ظواهر العصر الفكتوري وسماته .

* * *

كان الناس يتقبلون القوانين والأحكام والمعتقدات بالتصديق المطلق ، بل كانوا يعتبرون هذا التصديق نفسه بضعة من « الإيمان » ، وكان أشد ما يوجه إلى أى مجتهد أو أى ناقد من اتهام أن يقال عنه إنه « فقد إيمانه » — ولكن هل كانت كل هذه المبادئ إلا واجهة براقة تخفى بين طيات كيانها كثيراً من الشدوخ التى ظلت تتسع وتسرى فى كيان المجتمع حتى تحطم ؟ . . . أجل لقد قيض الله للمجتمع الإنجليزى فى مستهل القرن العشرين مدارس من أهل الفكر والعلم والأدب استطاعت أن تكشف عن الرذائل والفضائح التى كانت تسترها هذه الواجهة البراقة ، وكان للأدباء النصيب الأوفى فى كشف الغطاء عن هذه الرذائل ، ومن بين رواد هذه المدارس وأقطابها هـ . جـ . ولز ، وإدوارد برناردشو وجون جلزورذى .

* * *

كان لهؤلاء ولعديد غيرهم صوت أعلى من صوت السلطة ، وكان ديدنهم — كل فى مجاله — أن يبصروا الناس بنقاط الضعف فى هذا المجتمع الذى قدسه الناس وزعموا أنه ثابت لن يتحول ، وغمرت تيار الأدب موجة من « التساؤلات » التى كانت تتردد على هذا النحو :

١ — هل حقًّا كان هذا الإيمان صادقاً بعيداً عن الزيف ؟

٢ — وهل حقًّا كانت النظم البرلمانية كفيلة بأن تمثل عامة الشعب ؟

٣ — وهل كان حقًّا ما جاء به رجال الدين من أن الدين هو العدالة ؟

٤ — وهل حقًّا تستمتع الكافة من الناس بالرفاهية التى يدعيها العسكريون ودعاة التوسع الإمبراطورى ؟

٥ — وهل كان الأغنياء والعلماء والمحامون والقضاة وأصحاب السلطة مخلصين حين سكنوا إلى هذا النظام الاجتماعى وصوروه فى صورة المجتمع الذى تنزلت أسسه من لدن الله تعالى ؟

* * *

لا أحسب أننى فى حاجة إلى مناقشة السيد الأستاذ مؤلف الكتاب، فيما أتى به من موازنة بين برناردشو وجون جلزورذى ، ولكن لعل برناردشو كان أعنف بكثير من جلزورذى فى هذا الانقلاب الذى تمرس به الكتاب الإنجليز فى مستهل القرن العشرين ، وعندنا أن الفكاهة عند برناردشو كانت أمضى ، بل ولعلها كانت أفعل وأشد أثراً من الطريق السوىّ الذى اختطه جون جلزورذى ، وحسبنا فى هذا المقام أن نقرر أن الاثنين قد اشتركا فى حركة « التساؤل » التى اتجه إليها الأدباء ، وأن برناردشو قد تحدى المجتمع جميعه فى سلاطة وسخرية واستهزاء ، وإن كان يخفى فى هذه السمات آراءه فى العلم والدين والاقتصاد والاجتماع والفلسفة ، فى حين أن جون جلزورذى كان « أرستقراطى » النشأة والخلق ، يتخير كلماته بدقة الصانع الماهر ولا يميل إلى العنف أو التحدى فى مساجلاته . كان برناردشو متحاملا يميل إلى ناحية من النواحى حتى يثبت آراءه ويؤكدها ، فى حين أن جون جلزورذى كان رجل قانون يريد أن يعرض قضاياه بما لها وما عليها .

* * *

كانت مهمة الأدب عند جون جلزورذى تتجلى فى هذا « التساؤل »

الذى نوهنا عنه ، وعنده أن وظيفة الأديب ، سواء أكانت فى الرواية أم المسرحية أم الأقصوصة ، هى أن يبين للناس الرذائل التى تخفى عليهم فى البيئات التى يعيشون فيها ، وفى مؤلف له بعنوان « فندق السكينة » "The Inn of Tranquility" يصور جلزوردى شخصية رجل يسميه « سيثرو » — وهذا الاسم منحوت من الكلمتين "See through" أى انظر بعمق — يحمل مصباحاً كشافاً ، ويندس فى النواحى المظلمة من حياة المجتمع ، حيث يكشف للناس الذين يكوّنون كافة طبقاته ، ما يعج به هذا المجتمع من المفاسد والدنايا .

وسيثرو هذا ، أو صاحب المصباح ، يمثل -- عند جلزوردى — الأديب الذى يريد أن يكشف عن هذه المساوئ بكتاباته ومؤلفاته وجهاده وحينما يعرض لفكرة المصباح مرة أخرى يقول : « إن الفن الطبيعى يشبه المصباح الثابت ، يرفعه الأديب من وقت لآخر ، فيلقى الضوء فى فترات على أشياء يظهرها بوضوح فى أبعادها الصحيحة حيث لا يغشاها ضباب التحامل ولا ميول الهوى » .

وهذه العبارة التى اقتبسناها من أقوال جون جلزوردى نفسه تلخص للقارئ تلك الخصائص والسمات التى تميز بها الكاتب ، وهى خصائص معنوية وعدنا أن نفرد لها مكاناً خاصًا فى هذا البحث .

* * *

ولا بد أن نذكر هنا حقيقتين مهمتين عن حياة جون جلزوردى : أولاهما أنه انحدر من أسرة أرستقراطية ثرية ، والثانية أنه درس القانون ، ولكل من الحقيقتين وزن كبير فى اتجاهات الكاتب الأدبية . فأما عن

أرستقراطيته فمن المعروف أنه نشأ فى أسرة عريقة ثرية ، وأنه نعم بحياة مترفة منذ مولده حتى يوم وفاته ، وأنه كأولاد الخاصة من الإنجليز التحق فى طفولته وصباه بمعهد هارو الشهير ثم درس القانون بجامعة أكسفورد ، ولذلك كان يعلم كل شيء عن هذه الطبقة الأرستقراطية التى ينتسب إليها ، هذا بالإضافة إلى أنه كان فى الوقت ذاته كلفاً بدراسة وتقصى حياة الدهماء والعامة والمعذبين فى الأرض ، ومن ثمة استطاع أن يصور فى قصصه الحياة بوجهيها الباسم والمتجهم . أما عن دراسته للقانون فقد أثر هذا فى حياته أشد التأثير ، وعلى الرغم من أنه لم يمارس القانون إلا قليلا ، إلا أنه أقام من نفسه حكماً فى كل القضايا التى عالجها ، وبخاصة فى مسرحياته ، التى كان يلتزم فيها العدالة كأنما هو قاض يريد أن يزن بالقسطاس المستقيم الحجج والتصرفات وأنواع السلوك والظروف التى يصدر أحكامه على أساس منها ، ويظهر هذا جليًّا فى مسرحيات مثل « العدالة » و « الكفاح » و « الصندوق الفضى » .

* * *

لكن جون جلزورذى يمتاز بشيء نفسى آخر أسمى من هذه وتلك ، ذلك أن فى النفس الإنسانية نوازع وعوامل لا يمكنك أن ترجعها إلى عراقة الأصل ولا إلى نظام التربية ، أجل ، فى النفس الإنسانية عبقرية غير تلك التى نلتمس لها الأسباب أو نختلق لها المعاذير ، وقد ركبت فى نفس جلزورذى عاطفة نبعت منها كتاباته جميعاً وتدفقت فى مسرحياته بنوع خاص ، فقد كان حين معالجته لأى موضوع أو « تساؤل » يعرضه كمحام أو كقاض يلتزم أصول المنطق ، ولكن ثمة شيئاً فى منطقه يشعرك أن عاطفته

تميل إلى الشخص « المهضوم الحق » ، ولذلك أصبح هذا الشخص « المهضوم الحق » هو البطل الذى يستهوى قلبك لدى مطالعتك أية مسرحية من روائع مسرحيات جون جلزورذى . وفى اللغة الإنجليزية يقال إن فلاناً « كلب معلوب » كناية على أنه يمثل البؤس والشقاء والعذاب الذى يلقاه من الناس ، وكان جلزورذى يأخذ دائماً جانب هذا الكلب المغلوب !

* * *

وبصرف النظر عن هذه الكناية التى ذهبت مثلا فى أصول اللغة الإنجليزية فقد حاول جلزورذى أن يصوغ قصة « الكلب المغلوب » فى إحدى روائعه ، ولعل هذه القصة تشير إلى اتجاهه الأصلى فى الكتابة الأدبية . وملخص هذه القصة أن جرواً صغيراً ولد فلم يجد له مأوى ، وطارده الناس فى كل مكان : التقى بعامل جلف ركله ركلة أطاحت به إلى عرض الطريق ، ثم وقع فى أيدى بعض تلاميذ المدارس فرجموه بالحجارة ، وحمله رجل طيب إلى منزله ينوى إيواءه ولكنه خاف منه على أبنائه خشية أن يكون مصاباً بمرض معدٍ فألقى به إلى الطريق العام مرة أخرى ، ثم حمله بعض الصبية إلى منزلهم منهللين ، ولكن أباهم غضب وأبى إلا أن يعودوا به إلى حيث كان ، ودلف إلى حانوت إسكافى غليظ القلب رماه بمطرقة حطمت جزءاً من جسده الهزيل فراح يجر جسده جرًّا وهو بين الحياة والموت ، وأخيرا التقطه رجل رحيم القلب فأواه فى منزله وأشرف على علاجه . . . ولكن بعد فوات الأوان فقد مات « الكلب المغلوب » !

* * *

هذه القصة على بساطتها ترمز إلى فيض العواطف الكريمة التى كان يحسها جون جلزورذى ويجيش بها فؤاده حين يعالج موضوع الكلاب المغلوبة فى هذه الحياة ، والكلاب المغلوبة هنا ليست إلا الآدميين الذين ينتشرون فى جميع أنحاء الأرض ، إنهم هم المهضومون حقًّا الذين تكتلت الظروف لا لتحرمهم نعم الحياة فحسب بل ولتنكر عليهم الكفاف من العيش ، وهكذا ترى أنت هؤلاء وتطالعك وجوههم الشائهة الشاحبة كالأشباح فى روايات جلزورذى ومسرحياته مثل مسرحية « العدالة » ومسرحية « الكفاح » فهم أفراد سدت فى وجوههم الطرق ودفعتهم الظروف الجائرة وأصدرت عليهم دور القضاء أحكامها بالشقاء ، ثم تراهم وهم يمثلون طبقة مهضومة حين يحكم النظام على استعباد طبقة ما لطبقة أخرى فى مسرحيات مثل « الصندوق الفضى » و « الابن الأكبر » بل إنك لتراهم أيضاً فى مسرحيات مثل مسرحية « السوقة » حين تستعمر بلد بلداً آخر باسم القانون والتقدم والعناية الإلهية .

* * *

إذا أنت بحثت مسرحيات جلزورذى فى ضوء هذه العاطفة وجدت أن شخصياته المسرحية تنقسم إلى قسمين : أحدهما يشمل الجانب القوى المعتدى صاحب السلطة الذى يتظاهر بالتمسك بالقانون والدين والدستور والعلم ويستخدم كل هذا فى العدوان السافر والمستتر ، أولئك هم « المطارِدون » ، والقسم الثانى ينضوى تحت لوائه أشخاص من العاملين الكادحين المنتجين الذين يرزحون تحت وطأة الرق والاستعباد ويشقون تحت نير السلطة ، وهؤلاء هم « الهاربون » أو « المطارَدون » : الأولون عبيد

للخوف والكراهية ، ولذلك فهم يخشون الآخرين أشد الخشية ، ومن ثمة يكرهونهم أشد الكراهية ويمقتونهم أشد المقت ، أما الآخرون فهم أذلاء مستضعفون راضخون للجور والعدوان ، يلتمسون الشفقة ويبتهجون بأية بارقة من الرحمة إذا ومضت لهم ، هؤلاء يستثيرون عندك الموجدة والحفيظة وأولئك يملأون قلبك بالرحمة والرثاء ، فأنت إذ تقرأ مسرحية من هذه المسرحيات تجد نفسك نهباً موزعاً بين الخوف والكراهية من ناحية ، وبين الاستسلام والرحمة من ناحية أخرى ، ومن هنا كانت العقدة المسرحية التى تبرز فى مسرحيات جلزورذى .

* * *

تلك هى المعانى التى تختلج بها النفس حين تعرض لجون جلزورذى ، ولكن فلنعد الآن لنناقش مرة أخرى العلاقة بين كل هذا وبين هذا المجتمع الذى راح يستقبل هذه الروايات والمسرحيات ، وهنا أيضاً نريد أن نسترجع جانباً من الموازنة بين برناردشو وجلزورذى ، فقد سبق أن ذكرنا أن برناردشو كان أعنف فى مسرحياته وأشد فى النقد وأكثر أثراً فى هذه الثورة التى اشتعلت ضد المجتمع الفكتورى ، ولكن جلزورذى هو الآخر كان يستخدم المسرحية فى نقد المجتمع وكانت له فى ذلك طريقته الخاصة : كان برناردشو متأثراً بمسرحيات إبسن وكان جلزورذى أيضاً متأثراً بهذه المسرحيات ، وكان برناردشو مطلعاً على آثار تشيكوف وكان جلزورذى أيضاً متأثراً بالأدب الروسى بوجه عام ، وإذن فالاثنان كانا مشتركين فى اتجاهاتهما نحو الأدب وفهمهما لوظيفته ، مع بعض الاختلاف فى الأسلوب إذ أن روح الدعابة أو السخرية التى اتسم بها كل إنتاج برناردشو هيأت

له أن يكون هجاءً ذا نكتة فأسدل على كل المشكلات التى عالجها جوًّا من الدعابة تحد. به جميع النظم السائدة .

* * *

بيد أن جون جلزورذى يتميز على برناردشو فى ناحيه اجتماعية دقيقة ، ذلك أن مؤلفات جون جلزورذى من روايات وقصص ومسرحيات لاقت قبولا لدى الجمهور منذ أول وهلة ، فقد كان هناك تجاوب بينه وبين هذا الجمهور الذى كتب له ، أجل ، كان جون جلزورذى يكتب فيستجيب له جمهور كبير من الأشراف وأوساط الناس وأوشابهم إذ خلت مسرحياته من السخرية والدعابة وشطحات الخيال التى لونت مسرحيات برناردشو أو شابتها فأخرت التجاوب بينه وبين الجمهور حوالى عشر سنوات ظل طوالها مغلقاً على التهم ومعدماً أو يكاد حتى تداركته عناية بعض المخرجين فى أمير [illegible] فأنتجوا له مسرحية « تابع الشيطان » وكانت أول اعتراف بعبقريته ككاتب مسرحى .

* * *

نقول إن فى هذا درساً فى التجاوب بين الفنان وجمهوره . فهذا التجاوب أو ما يسمونه فى الإنجليزية "Communicability" هو فى الصميم من تقديرنا [illegible]ل مثل جون جلزورذى ، بل هو فى الصميم من تقديرنا لعدد عديد من الفنانين من شعراء وكتاب ورسامين ومصورين ، فهذا التجاوب إنما هو أساس كبير لاستزادة الفنان فيما ينتجه وفى تطوير هذا الإنتاج ، وجون جلزورذى من نخبة الذين حظوا بنعمة هذا التجاوب ، فقد كان يتحدث فى ثقة دارس القانون ، ويضع قضايا هؤلاء المطاردين وأولئك المطاردين فى

إطارات من المنطق السليم المحبوك فيتقبل الناس ما يقول قبولا حسناً . ثم هناك بعد ذلك الأثر النفسى على القراء والنظارة كان يحس أنه واحد من هؤلاء الذين تعالج قضيتهم المسرحية المعروضة ، وهذه ذروة التجاوب .

وقد اشتد هذا التجاوب بين مؤلفات جون جلزورذى وبين كافة طبقات المجتمع ، بل لقد اشتد أيضاً بين هذه المؤلفات وبين المتقدين والمشاهدين من غير قراء الإنجليزية ، بل لا يزال يستجيب قوم مثلنا لا ينفكون يرون وجهات نظرهم فيما كتبه جلزورذى عن قضايا الاستعمار والحرب واستغلال البلاد القوية لغيرها من البلاد الضعيفة المتخلفة وعدوان القوى على الضعيف .

* * *

أقول إن هذا التجاوب سر من أسرار المكانة التى حظى به جلزورذى فى حياته ولا يزال يحظى بها فى سجلات الأدب الإنجليزى . فأنا أذكر مثلا تجاربى الشخصية فى هذا المضمار ، فقد قرأت لجلزورذى « قصة آل فورسيت البطولية » فى مقتبل العمر ، وما زلت أذكر كيف أنه على مدى الأربعين سنة الماضية حدثت قصص عديدة لأسر مصرية أعادت إلى الأذهان هذه الدائرة التى انتقلت بآل فورست من جيل إلى جيل إذ كانت تكراراً لها . لقد كان فورسيت « الأول » أو « الجد الأكبر » فيما صوره جلزورذى رجلا ذا مال جمعه وحرص عليه ، وكان همه فى الحياة أن يمتلك كل شىء دون استثناء بما فى ذلك المرأة . فقد أراد أن يمتلك بماله زوجة جميلة يفاخر بها أترابه ، وبسبب هذا الجشع تتحالف عليه أرزاء الحياة ومآسيها ، وتتحول حياته العائلية إلى سلسلة من المحن تفقده سلام الروح وهدوء النفس وتقطع وشائج التعاطف بينه وبين زوجته الجميلة التى يحبها ،

وتخلف أعقاب من الجيلين الثانى والثالث ، يرثون عن أبيهم وجدهم هذا المال فيحاولون جاهدين أن يتأقلموا وفق ظروف حياتهم الجديدة .

أعقاب من الجيلين الثانى والثالث ، يرثون عن أبيهم وجدهم هذا المال فيحاولون جاهدين أن يتأقلموا وفق ظروف حياتهم الجديدة .

أقول إننى كنت أشاهد هذه السلسلة المطردة الحلقات فى حياة الأسر المصرية التى عاشت فى بذخ وإسراف فى مستهل هذا القرن ، وألمح فى رب الأسرة الأول نفس السمات التى يصورها جون جلزوردى فى« سومز فورسيت » وأشهد نفس التحول الاجتماعى فى ذراريه ؛ كذلك قل عن تجاربى فى مسرحياته ، فالرأى عندى أن آلافاً من المصريين يمثلون « الكلاب المغلوبة » فى مسرحيات مثل « الكفاح » و « العدالة » و « الصندوق الفضى » و « الابن الأكبر » ، بل إن جزءاً كبيراً من تاريخ مصر يمثل الكفاح والجهاد من أجل الحرية والسلام فيما يصوره جلزوردى فى مسرحيات مثل « الأول والأخير » و « الهزيمة » و « السوقه » .

* * *

تلك هى الخصائص التى ميزت جون جلزوردى وأغنت أدبه إذ أمدته بكنز من الجدة والطرافة ، وهكذا جعلته من أهم رواد الأدب البواسل الذين حطموا تماثيل النفاق التى أقامها الإنجليز فى العصر الفكتورى وراحوا يحرقون لها البخور وينحرون لها الذبائح حتى إذا جاء هذا الكاتب المصلح صاحب المبادئ والمثل العليا رنت إليه العيون وأنصتت له الآذان وتقبلته القلوب والعقول فى ترحيب دونه كل ترحيب . ولكن كيف تيسر لهذا الأديب الكبير أن يعبر عن خوالج نفسه ويشرك القراء والمتفرجين فى هذه التجارب الذهنية

التى كان يعرضها ؟ . هنا نصل إلى الشطر الثالث من هذا البحث وهو ما يتعلق بفنه المسرحى .

* * *

لقد أسهب الأستاذ رشدى السيسى فى كتابه فى شرح المنهج الذى اتبعه جون جلزورذى عند كتابته لمسرحياته ، وقد أوفى على الغاية فى كل ما ذهب إليه خاصة عندما بدأ بذكر الأثر الحاسم الذى كان للكاتب النرويجى « إبسن » على الحركة المسرحية بإنجلترا بل و بالعالم أجمع ، ومن ثمة لم يعد هناك مجال لمتزيد أو لمستزيد اللهم إلا أن نقف برهة عند نقطة معينة نريد أن نتبينها : لقد زعم جلزورذى نفسه فى بعض حديثه أن منهجه هو المنهج الطبيعى ، والواقع أن آثاره جميعاً تدل على أنه قد اتبع هذا المنهج فى قصصه ورواياته ومسرحياته ، ويطول بنا المقام إذا نحن تتبعنا انتقال المسرحية فى أطوارها المختلفة من الرومانتيكية التى اصطبغت بلونها فى النصف الأول من القرن التاسع عشر إلى الواقعية التى احتوتها فى أوائل القرن العشرين ثم إلى الرمزية التى تشكلت بسماتها فى الثلاثينيات من هذا القرن .

ولكن فلنكتف الآن بأن نثبت أن هذا المنهج الطبيعى الذى اتبعه جون جلزورذى لم يكن إلا شعبة من الواقعية التى غزت المسرحية الإنجليزية ، وأن منهجه الطبيعى هو الذى طوّع له الوسائل لأن ينقل صوراً من الحياة العامة بإنجلترا سواء أكانت منتزعة من الريف أم كانت مأخوذة من الحضر .

ويختار جون جلزورذى لأية من مسرحياته موضوعاً من موضوعات الساعة ، يعالجه من كافة جوانبه ، فيتشعب ويتعقد وتتنافر شخصياته ، وينساب الحوار من خلال القصة المسرحية صريحاً موجزاً ، له هدف ذهنى

وخلق خاص ، وينتهى الحوار لا بحل صريح للمشكلة ، يفرضه عليك فرضاً ، بل بمقترحات وقضايا ، عليك أنت أن تفكر فيها ، وأن تجد لها حلا ، وهكذا سنظل نردد ما سبق أن اقتبسناه عن جلزوردى نفسه من أن « الفن الطبيعى يشبه المصباح الثابت يرفعه الأديب من وقت لآخر فيلقى الضوء بين الفينة والفينة ، على أشياء يظهرها بوضوح فى أبعادها الصحيحة ، لا يعشاها ضباب التحامل ولا ميول الهوى .

* * *

تلك هى الذكريات التى دارت بخلدى حينما انتهيت من قراءة هذا الكتاب القيم حقًّا ، وإنى لأحمد للأستاذ رشدى السيسى أنه أتحف قراء العربية بهذا البحث الرصين وما ضمه من روائع جلزوردى ، فشكراً له على جهوده الموفقة فى خدمة اللغة العربية إن كتابة وتأليفاً أو ترجمة وتصنيفاً . . .

رسالة

أرسلت مسز « أيدا جلزورذى » أرملة الكاتب الكبير « جون جلزورذى رسالة إلى منشئ هذا البحث ردًّا على كـ ب منه متضمناً خلاصة رأيه عن مسرحيات زوجها الراحل . . . وفيما يلى الترجمة العربية لهذه الرسالة الكريمة :

سيدى العزيز

استلمت الآن خطابك الخاص بمؤلفات زوجى ، وسأحاول جاهدة أن أضيف إلى البحث الذى تعالجه عن إنتاجه وجهوده فى سبيل الأدب والفن المسرحى .

أنبى إليك مع شديد الأسى أن وفاة زوجى كانت فى اليوم الحادى والثلاثين من شهر يناير عام ١٩٣٣ أى بعد صدور دائرة المعارف البريطانية ، ولهذا جاءت ترجمتها لحياته مقتضبة غير وافية ، ولا بد أنك لاحظت هذا ، ولذلك أقترح -- فيما لو شئت زيادة معلوماتك عن زوجى — أن تطلع على كتاب « حياة ورسائل جون جلزورذى » لمؤلفه « ماروت » فهو يفيض بالمعلومات ويضم صوراً منوعة .

كم أنا آسفة إذ أجد نفسى عاجزة عن أن أرسل إليك إحدى صور زوجى ، فليس فى متناول يدى الآن منها ما يمكننى الاستغناء عنه ، كما أنه يتعذر علىّ زيارة منزلى بلندن لهذا الغرض نظراً للأحوال الحاضرة ، فإذا جاز لى أن أقترح أرى أن تستأذن « السادة هينمان » ناشرى الكتاب الآنف الذكر للانتفاع بما قد تتخيره من الصور التى يحويها .

كنت موفقاً إذ فطنت إلى ما أدخله جلزورذى على الفن المسرحى من

تجديد وابتكار ، والواقع أن قصة « الصندوق الفضي » التي وضعها عام ١٩٠٦ كانت فتحاً فنياً في تاريخ المسرحية ، وإن لم يفطن الجمهور إلى هذه الحقيقة إلا متأخراً .

أعجبت بالنتائج القيمة الكثيرة التي انتهيت إليها في أثناء دراستك لمسرحياته ، ولكني لست من رأيك في بعض ما ذهبت إليه ، فالشخصيات غير المحبوبة التي جاءت بمسرحياته الثلاث : « إنجليزي عتيق » و « الغابة » و « اللعبة القاصمة » لتتضاءل حقًّا إذا قورنت بالصور التي رسمها لشخصيات كثيرة غيرها ، والرأى عندى أن الكاتب الذى يتجاهل وجود الأوغاد في كل مكان وزمان ، ليتعذر عليه أن يصطنع من كتاباته مرآة تصلح لأن تعكس لنا الطبائع البشرية على حقيقتها .

أحس بعجزى عن الترسل ، فالأمر في حاجة إلى وقت طويل لا يتهيأ لى ؛ كل ما يمكنني قوله أن طبيعة جلزوردى الفنية الكاملة ، وفطرته السليمة المنصفة فاقت كل تصور ، فلم يك هناك ما يمكن أن يثنيه بأى حال من الأحوال عن تصوير كل شخصية وفق الواقع الذى اختبره بنفسه ، ولذلك شد ما كان يعنى بمعرفة كل ما يمكن معرفته عن دخائل كل شخص يكتب عنه وتفاصيل حياته .

إنى لأخشى أن يكون رأيى الخاص الذى أكاشفك به الآن سبباً فى مجافاتك الصواب ، فالموضوع ولا شك بالغ التعقيد .

أشكر لك ما هيأه لى خطابك من متعة بالغة .

مع أطيب تمنياتى لنجاح عملك .

توقيع

أيدا جلزوردى

هذا الكتاب

عرض عاجل :

لست أُسمي ما تضمه هذه الصفحات عن الكاتب المسرحي الكبير « جلزورذي » بحثاً ، ذلك لأن توفري على دراسته ليس بالقدر الذي يرقى بما كتبته عنه إلى مصاف البحوث التي تتغلغل إلى الأصول وتتشعب منها أو معها إلى الفروع ، وتستقصي العلل وتقيم على أسسها النتائج ، ثم تسوقها جميعاً إلى القارئ في تعمق وفي إفاضة لا محيص منهما لكل باحث ، بل ومن خطل الرأي أن أحاول مثل هذا البحث ، فالمجال في هذا الكتيّب لا يتسع بحال للبحوث والدراسات الشاملة ، التي تحيط في عناية بأطراف المواضيع المراد دراستها وتفصيلها ، بعد أن يجوس الباحث خلال دقائقها ، ويتعمق إلى أغوارها . . . وإذن فإن كان لا بد من تسمية ما أنت بصدد قراءته الآن عن « جلزورذي » فهو تعريف متواضع بالكاتب أو هو « عجالة » في أدبه لا أكثر ، وكأية عجالة : أخرى لا بد سيعوزها عمق الدراسات المفصلة واستيفاؤها ، وإن اقترنت بجلاء الفكرة ويسرها ، وبالبساطة في عرضها وشرحها .

وأنا لا أستحل لنفسي أي فضل فيما سيلمسه القارئ من هذا الجلاء وهذا اليسر ، إذ الفضل كله في هذا للكاتب نفسه ، فليس ثمة شك في أن جلزورذي دائماً مسوق في كتاباته بنزعة تعليمية – إن جاز هذا التعبير – يرى معها أن يقصر أدبه على ما فيه نفع الجمهور وإنارته وتهذيبه ، لا أن

يكتب للذة الذهنية أو العقلية الخالصة ، وليس من الحكمة فى شيء ، ما دام هذا هو الهدف الذى يسعى إليه ، ألا يكون جليًّا فى كتاباته كل الجلاء ، واضحاً كل الوضوح ، بعيداً ما أمكن عن غموض المعنى وتعقيد اللفظ حتى يجدى التعليم الذى ينزع إليه بفطرته ، ويعم النفع الذى يبغيه والذى من أجله أمد المسرح الإنجليزى بعشرات من المسرحيات الناجحة ، تلك المسرحيات التى أقبل الشعب من كافة الطبقات على مشاهدتها ، فكان واجباً على الكاتب إزاء هذه الطبقات أن يكون موقفه من كل منها موقف الرسول الذى يعبر فى صدق وأمانة ، عن آمال كل طبقة وأمانيها بعد أن يدرس مشكلاتها ويلم بوسائل إصلاحها .

ولما كان الشعب الإنجليزى ككل شعوب الشمال ، متزناً هادئاً لا تعصف به الأهواء ، أمكننا أن نقرر فى اطمئنان أن نجاح هذا الكاتب لم يقم على أساس من تملقه للجماهير وتزلفه لأهوائها ونزعاتها ، إنما لاشتراكه معها فى الإحساس والتفكير ، فهو يحس ما تحسه ، وهو يفكر كما تفكر – وإن لم يفض هذا على وجهة نظره الخاصة ورأيه المستقل ، وهو بعد هذا وذاك يخلو إلى نفسه فيروح يصور هذا الإحساس وهذا التفكير تصويراً فنيًّا رائعاً ، فيه من صدق الواقع ومن الاستجابة لعوامل البيئة التى تحيط به بقدر ما فيه من جمال الفن .

أهمية الكاتب :

ولعل أحداً من كتاب الإنجليز وأدبائهم لم يفد المسرح بعد شكسبير بالقدر الذى أفاده به جلزورذى – إذا استثنينا برناردشو – ولكن فى

مقدورنا الآن – وقد عرفنا الدوافع التى يكتب جلزورذى تحت تأثيرها وبإلهام منها – أن نجزم أن مسرحياته لم تعالج إلا ما كان له بشعبه وببلاده صلة ما ، ولهذا اقتصر أثرها على المسرح المحلى ، بينما قد تأثر العالم ، دون شك ، بمسرحيات أخرى كالتى كتبها شكسبير مثلا .

لقد كان جلزورذى فى معظم مسرحياته كالصدى الذى يردد ما تضطرم به جوانح مواطنيه من شتى العواطف ومختلف المشاعر ، ولذلك كان لها شأن أى شأن فيما تيسره للباحث من دراسة نفسية الأمة الإنجليزية وتفهمها ، ومن أخذ صورة صادقة عن طبائعها بما لها من مساوئ وحسنات ، وبما فيها من نواحى القوة والضعف سواء بسواء ، ومن تسهيل مهمة مؤرخى المستقبل الذين يريدون معرفة حالة البلاد معرفة صحيحة لا زيف فيها فى العصر الذى عاش فيه هذا الكاتب الكبير .

المسرحيات التاريخية :

وأكبر الظن أن هذا يفسر انصراف جلزورذى عن كتابة المسرحيات المنتزعة من حوادث التاريخ القديم كما صنع شكسبير الذى قدم كثيراً منها للمسرح مثل « يوليوس قيصر » و « ريتشارد الثالث » و « هنرى الرابع » و « هنرى الثامن » وغيرها ، فالأول يؤمن بأن التاريخ القديم بحوادثه وأخباره مهما كان صادقاً فنفعه كعامل للتهذيب ليس كبيراً ما دام قد قدم العهد به وأصبح جامداً لا يتأثر بصور الحياة العصرية التى تنبض بكل ما هو جديد، والرأى عنده أن الإنسان مهما كان اهتمامه بمعرفة أخبار الأوائل وحوادث الماضى ، لا يملك نفسه عند الاطلاع على هذه الحوادث وهذه

الأخبار عن أن يساوره غير قليل من عدم الاكتراث أو الشك أو عدم التصديق ، بل لعل ما يساوره خليط من هذا كله ، ولهذا كان التاريخ قليل الأثر التهذيبي على قارئه أو على من يشاهد المسرحيات المنتزعة منه ، وبدهى أن الفرق تافه ، على حد تعبير كاتب إنجليزى كبير ، بين الباطل والصدق العاطل ، ولا عبرة فى زعمه للقول الشائع « التاريخ يعيد نفسه »

لذلك وجد جلزوردى فى مشاكل بلاده الاجتماعية والاقتصادية ما يصرفه عن أن ينبش أغوار التاريخ ويخرج الماضى من أكفانه ، وأمامه الحاضر تعج فى أعماقه دنيا زاخرة بالحياة التى تنبض بكل ما هو جديد وبكل ما هو طريف .

القصة الطويلة :

ولقد عالج جلزوردى إلى جانب مسرحياته كتابة القصة الطويلة غير التمثيلية ، بل لقد استهل حياته الأدبية بكتابتها كغيره من الكتاب المعاصرين الذين ساهموا فى نهضة المسرح الإنجليزى ، ولقد وفق فيها توفيقاً كبيراً ، ولكن يجب ألا يغرب عن البال أنه قد طغت عليه نزعته التعليمية فى هذه القصص ولذلك جاءت وهى مشوبة قليلا بالإسهاب فى الوصف والإطالة فيما يشبه النصح ، وهو إلى جانب هذا لم يهتم اهتماماً كبيراً بالحبكة القصصية أو العقدة "Plot" حسب تعبير كتاب القصة وهى لا غنى عنها بحال لنجاح القصص ، ولكن عوضه عن هذا ما امتازت به من الأسلوب الذى بلغ الذروة ، ولولا أنه أطال فى بعض هذه القصص إلى حد الإفراط كما كان الحال مثلا فيما كتبه بعنوان : « قصة أسرة فورسايت البطولية » "The Forsyte Saga" لما كان هناك أى مأخذ عليه .

بين الإيجاز والإسهاب :

ولقد يبدو غريباً أن يقع الكاتب فى مثل هذا التضارب بين الإيجاز والإسهاب ، فبينما هو فى مسرحياته مقتصد صريح ، صادق التعبير ، تنبض كل عبارة منها بالحياة ، وتفصح كل كلمة منها عن خلجة من خلجات النفس ، أو عن معنى من المعانى التى يتمخض عنها الفكر ، إذ هو يميل إلى الإسهاب والشرح فيما سوى هذا من القصص ، ولكن إذا تعمقنا قليلا فى دراسة الدوافع التى كان جلزورذى يكتب دائماً تحت تأثيرها ، بل وبوحى منها ، لوجدنا ما يفسر هذا التضارب « الظاهرى » ويوضحه ، بل ولوجدنا ما يبرره ويكاد أن يحتمه ، فما من شك أن جلزورذى ، كمصلح اجتماعى . لم يعالج كتابة المسرحيات أو القصص على أنها مادة للتسلية واللهو بل على أنها وسيلة من وسائل الإصلاح الذى ينشده وسبيلا إلى إنارة الجمهور ونفعه ، وليس أدلّ على هذا من قصصه ذاتها ، فما من واحدة منها لم يتعرض الكاتب فيها لإحدى مشاكل بلاده الاجتماعية أو الاقتصادية ، فهو يناقشها على ألسنة شخوص قصته ، وهو لا ينتهى دون أن يقترح – تلميحا أو تصريحاً – ما يراه كفيلا بالإصلاح وإن خالف فى هذا رأى الجماهير وخرج على إجماعهم كما كان الحال فى مسرحيته الرائعة « السوقة » التى وضعها عام ١٩١٤ وسنعرج عليها فيما بعد . . . وبدهى أن كاتباً هذا شأنه لا يدخر وسعاً فى سبيل توضيح فكرته وشرحها فى إسهاب كلما أتيحت له الفرصة ، وهذا غير ميسور طبعاً فى كتابة المسرحيات إذ لا بد من مراعاة الزمن المحدد لعرضها على المسرح ، ولكن الحال يختلف

تماماً عند كتابة القصة غير المسرحية ، فهى غير مقيدة بزمن محدود ، ومن هنا يتضح السبب فى إيجازه عند كتابة المسرحيات وإسهابه فيا عداها ، فهو لا يهتم برضا الجمهور قدر اهتمامه بنزعة الإصلاح التى تفعم صدره ، والتى تدفعه إلى أن يسهب فى شرح فكرته حتى يطمئن إلى ثبوتها ورسوخها فى الأذهان ، وهو فى هذا قريب الشبه بالمعلم الذى يخضع فى درسه للزمن المحدد له ، فإذا أفسح له فى هذا الزمن راح يفصل ما اقتضب ، ويسهب فيا أوجز .

وقد يهم القارئ أن يعلم أنى لن أتناول جلزورذى فى هذه العجالة إلا من ناحية التأليف المسرحى وهى الناحية التى تجلى فيها إبداعه الفنى ، والتى كشفت لنا عن مدى استجابته لعوامل الوسط الذى يضمه ، والذى كان لقلمه فى تشخيص مشكلاته ، وعلاج هذه المشكلات نصيب ملحوظ وقدر غير قليل .

أسلوب جلزورذى المسرحى :

قد لا يعنينا كثيراً أن نعرف أن جون جلزورذى ولد فى اليوم الرابع عشر من شهر أغسطس عام ١٨٦٧ ، وأنه انتهى من دراسته الجامعية ثم استعد لحياته العملية عام ١٨٩٠ ، وأنه ظل يمد المسرح الإنجليزى بروائع مسرحياته حتى انتقل إلى رحمة الله فى اليوم الحادى والثلاثين من شهر يناير عام ١٩٣٣ ، إلا لما تيسره لنا هذه التواريخ من الوقوف على حالة المسرح بإنجلترا فى العهد الذى ولد فيه الكاتب ، والذى امتد به حتى ابتدأ إنتاجه الأدبى ؛ وما يتبع هذا من تحديد الأثر الذى كان لمسرحياته على هذا

المسرح ، وقد لا يعنينا أيضاً أن نعرف أنه ولد بمدينة « كومب » بمقاطعة « سيرى Surrey » الجميلة بجنوب إنجلترا ، وأنه استهل دراسته بمعهد « هارو » حيث يتعلم أولاد الخاصة من الإنجليز ، وأنه أتم دراسته العالية بالكلية الجديدة بجامعة أكسفورد حيث نال إجازة الحقوق ، إلا من ناحية ما تيسره لنا هذه المعلومات من فهم الدوافع النبيلة التى لم يلوثها العرض والتى دفعته دفعاً إلى أن يصور فى مسرحياته شقاء الطبقات الفقيرة فى بلاده ، بأسلوب مبتكر أخاذ ملىء بالحياة ، لأنه منتزع من صميم هذه الحياة ، إذ روعى فيه ألا يخلو من لهجات التخاطب ، أو بتعبير أدق ، من لغات التخاطب المختلفة التى يتكلم بها كل فرد ممن تمثلهم شخوص مسرحياته ، فالعامل وابن السبيل ونزيل السجون والنبيل ورجل السياسة ورجل الأعمال محدث الغنى والأجنبى عن البلاد ، لكل من هؤلاء فى مسرحيات جلزورذى لغته التى يتخاطب بها ولهجته التى تميزه من غيره .

وليس ثمة شك فى أن هذه الطريقة التى ابتكرها جلزورذى فى الكتابة المسرحية ، والتى لم يقدم عليها من قبله أحد من كتاب المسرح بإنجلترا كان من شأنها أن أفعمت مسرحياته بالحركة والحياة ، إذ قربت بينها وبين طبيعة الأشياء والأحياء ، وجعلت منها صورة حية ناطقة للمسائل التى تعالجها .

بيد أن هذا لا ينفى أن قارئ هذه المسرحيات ، إذا كان من المحافظين المتزمتين ، لا بد سيسىء الظن بكفاية الكاتب الأدبية وبراعته ، أو فى القليل سينفر من مسرحياته عندما تصدمه هذه العبارات العامية التى قلنا إن جلزورذى كان يلجأ إلى استعمالها فى كثير من الأحيان . لا عجزاً عن استعمال اللغة الفصحى ، إنما كى يضع الأمور فى موضعها الصحيح ،

وحتى يتيسر له إبراز فكرته خالية من كل صنعة ، وأخيرًا كيما يلبس شخوص مسرحياته الأدوار التي يقومون بها ، والتي تقتضيهم التخاطب بالعامية دون الفصحى ، تبعاً لمقتضيات الأحوال التي تحيط بهم ، أو تبعاً لضرورات البيئة التي يمثلون أنهم نشأوا فيها .

لهذا كله كان أثر هذه المسرحيات على من يشاهدها أقوى انطباعاً وأشد تغلغلا منه على من يطالعها ، خاصة إذا كان الممثل موهوباً ومندمجاً في الدور الذي يؤديه ، وكان الإخراج موفقاً لا عيب فيه ، فحينئذ يندمج المشاهد فيما يراه من أحداث المسرحية ومناظرها ، وحتى ليستغرق في تتبع هذه الأحداث ، فلا يعود يشعر إلا بالجو الذي أراد أن ينقله المؤلف إليه ، ولا يعود يحس إلا ما أراد أن يبتعثه في أعماقه من شتى ضروب المشاعر وألوان الإحساس ، وهذا هو أحد الأهداف الكبرى التي يرمي إليها أو التي يجب أن يرمي إليها كل كاتب مسرحي من كتابة مسرحياته .

المسرح بإنجلترا في القرنين .
التاسع عشر والعشرين :

ولقد أصبح لزاماً علينا بعد إذ علمنا أن جلزورذي ولد في النصف الثاني من القرن التاسع عشر أن نلقي ولو نظرة عارضة على المسرح بإنجلترا في أثناء هذا القرن وأن نحاول أخذ فكرة إن تكن عاجلة ولكنها صادقة عن المسرحيات التي اعتمد عليها المسرح آنذاك ، ولن يصعب علينا هذا لما أصاب الكتابة المسرحية طوال الجزء الأكبر من القرن المنصرم من ركود كان من شأنه أن

تقطعت الوشائج وتمزقت الصلات التى تربط المسرح بالأدب ورجاله ، فكان أن اقتصر ما يعرض به على مسرحيات تافهة لا قيمة لها ، تعوزها الفكرة الخصبة والأسلوب السلس والتعبير الفنى الصادق ، وكان أن انصرفت الطبقات المثقفة عن الأدب المسرحى بعد أن رأت أنه لم يعد صالحاً لأن تعتمد عليه كعامل من عوامل الإفادة والتهذيب والرياضية الفكرية ، وقد ساعد على هذا ما يسرته أشعار بيرون وقصص ديكنز وسكوت النابضة بالحياة لهذه الطبقات من متعة عقلية بالغة .

وقد ظل الحال كذلك حتى بداية الربع الأخير من القرن التاسع عشر عندما ابتدأت مسارح أوربا جميعاً تتأثر بأدب « إبسن » "Ibsen" الشاعر النرويجى والكاتب المسرحى الذائع الصيت ، فلقد كاد المسرح الإنجليزى قبيل هذا أن يصبح أثراً بعد عين ، لا لقلة رواد المسرح ، فسيلهم لم ينقطع عنه بل زاد زيادة كبيرة لما عم البلاد آنئذ من رخاء إثر إعلان قانون حرية التجارة بإنجلترا ، ولا لانعدام الممثلين فقد تضاعف عددهم أو كاد لوفرة المسرحيات المعروضة التى استدعاها هذا الرواج ، ولكن لأن المسرح ظل بالرغم من هذا كله عاجزًا عن أن يساهم بأى نصيب فى النهضة الفكرية القائمة ، إذ كانت المسرحيات المعروضة تافهة خالية من كل ذوق فنى ، لا تزيد عن أن تكون مجموعة مناظر جوفاء لا معنى لها ولا حياة فيها ، ولا تعبر بحال عن أى شأن من شئون البلاد الاجتماعية ، أو تتمشى مع التطورات التى لابست كل ناحية من نواحى الحياة حينذاك ، ولذلك اختفى الكاتب المسرحى « الموهوب » من الميدان ، وهو حجر الزاوية فى بناء المسرح ، وأصبح الممثل الأول هو عماد هذا المسرح ، بل هو كل

شيء فيه ، وعلى قدر احتياله وتملقه للجماهير قام رواج مسرحه دون أى اعتبار لقيمة المسرحيات التى تقدم لهذه الجماهير ، إذ قنعت بأن يكون المسرح أداة للتسلية واللهو ، بدل أن يكون محرابا لتقديس الفن ، ومكانا للتهذيب والإفادة واللذة العقلية ، وبذلك تعطلت رسالة المسرح الحقيقية .

ولعل أغرب ما فى الأمر أن هذا الشلل الذى أصاب المسرح وقع فى فترة كانت الحياة تتدفق فى أثنائها من كل جانب ، فقد كانت البلاد بصدد انقلاب شامل فى نظمها الاجتماعية والاقتصادية ، وكان العلم قد ابتدأ يناصب العقائد السائدة الخاطئة والخرافات العجائزية العداء ، وكانت النفوس تغلى كالمرجل ضد نظام الطبقات الجائر ؛ وكان لابد من التعبير عن كل هذا بشتى ضروب الإفصاح والتعبير ، وكان لابد أن تكون المسرحية أولى ما توجه إليه عناية المشتغلين بالأدب كأداة لهذا التعبير ولكن شيئاً من هذا لم يحدث ، وظل المسرح طويلا مستغرقاً فى سباته العميق ، وظلت المسرحيات التى تعرض به خالية من الحياة ، حتى قيض الله له ولها نخبة مختارة من كبار أدباء الإنجليز الذين تأثروا بأدب « أبسن » وطريقته المبتكرة ، وترسموا خطاه ، وكان على رأس هؤلاء جميعا برناردشو وجلز و رذى . فنهض المسرح على أيديهم نهضة رائعة موفقة ظلت تبهر الأنظار حتى قبيل الحرب الكبرى الثانية ، وكان جلزوردى قد توفاه الله قبل هذا ببضع سنين كما سبق أن ذكرنا .

إبسن والمسرح الإنجليزى

وأروع ما يمتاز به إبسن أنه حاول فى مسرحياته تصوير الطبيعة

البشرية على إطلاقها ومن مختلف جوانبها ، وإنه تعمق إلى أغوار النفس الإنسانية ثم تناولها بالوصف فى أسلوب الكاتب الموهوب والشاعر الملهم ، دون أن يصده عن هذا عائق ما ، ودون أن يتعصب لقومية معينة أو لغة خاصة ، أو أن يتشيع لمذهب من المذاهب ، وأكبر الظن أن هذا هو السبب الذى من أجله تأثرت مسارح أوربا كلها بفن « إبسن » وما فيه من جدة وجمال . وككل مسارح أوربا لم يدع المسرح بإنجلترا هذه الفرصة الذهبية تفلت من يده ، فتشبث بها ، وأفاد منها ولكن إلى حد ، فقد ظل هذا المسرح يحس فراغاً كبيراً لا يسده سوى كاتب إنجليزى موهوب ، إذ ثمة آفاق فسيحة من الآراء والنظريات الاجتماعية كانت قد انجابت عنها الحجب وتفتحت لها عيون الشعب الإنجليزى فى القرن الماضى ، وثمة مشاكل ضخمة أثارتها هذه الآراء ، وظل المسرح طويلا عاجزاً عن أن يكون أداة للإفصاح عن هذه الآراء ، وظلت رسالته لهذه معطلة حتى جاء جلزورذى كما ذكرنا آنفا ، بعد أن سبقه « برناردشو » ببضع سنين قليلة ، فكان لهما مع نخبة من الكتاب المسرحيين المعاصريين أمثال « ملن » و « إدوين » وغيرهما فضل إحياء المسرح الإنجليزى بعد أن تردّى إلى الدمار أو كاد ، وكان أن تم « خلق » المسرحية الإنجليزية الصميمة التى تتمتع الآن بمميزاتها الخاصة وتحتفظ بمعالمها واستقلالها .

بين برناردشو وجلزورذى :

وليس ثمة شك أن جلزورذى قد تأثر بأدب إبسن أكثر مما تأثر به برناردشو ، وإن كان هذا الأخير قد أخذ عن إبسن معظم طرائقه فى الفن

المسرحى ، ذلك لأن جلزورذى وإبسن مشتركان فى الطبيعة السمحة الكريمة ، وفى صفات النفس الإنسانية التى لا ترضخ لأية قيود عنصرية أو جنسية ، وليس معنى هذا أن برناردشو كان محروماً من هذا الاتجاه الإنسانى الفسيح الأفق ، ومن هذا المفهوم المتسامى العالى فى الأدب ، أو أنه كان يجهل مهمة الفن المسرحى الأصيلة ، التى تقوم على أساس من التغلغل فى أغوار النفس البشرية ، لاستكشاف كنهها وإلقاء الضوء على خفاياها .

والواقع أن برناردشو كان يعرف أن المسرحية عندما تعالج أية مشكلة من مشكلات الحياة أو البيئة التى يعيش فيها الكاتب ، لزم أن يكون هناك تجاوب تام بين هذه المعالجة وهذه المهمة الكبيرة ، مهمة دراسة النفس الإنسانية ممثلة فى شخوص المسرحية . . بل هو لم يغفل أى جانب من هذا المفهوم فى الصلة القائمة بين إصلاح المجتمع ودراسة هذه النفس ، ولكنه للأسف ، كان فى محاولته هذا الإصلاح كالمربى الذى يحمل عصاً غليظة يلهب بها ظهور تلاميذه الضعاف ، وأبدانهم الهزيلة ، بالرغم من أنهم فى مسيس الحاجة إلى حدبه وعطفه وحنانه .

ولذلك راح « شو » يسخر بالمجتمع فى غير رفق ، ويركب الناس على اختلاف طوائفهم ومهنهم بالدعاية ، فى أسلوب لاذع عنيف ، لا يشفق على ضعف الضعفاء منهم ، ولا يرثى لسقطة الساقطين ، بالرغم من محاولته أن ينبه الأذهان إلى مايعانيه الفقراء المحرومون ، وما يقاسيه الكادحون المرهقون ، فهو حتى فى هذه المحاولات الجادة القوية فى سبيل إصلاح هؤلاء وأولئك جميعاً ورفع مستوى معيشتهم ، وإنصافهم من ظلم المجتمع

الجائر لهم ، ونبذه إياهم لم يكن يعفيهم من تهكمه القاسى وسخريته الموجعة .

أما جلزورذى الإنسان السمح الكريم ، فكان يفيض عطفاً وحناناً ، يشارك المنكوبين فى آلامهم ، ويعمل جاهداً فى سبيل إقالة عثراتهم ، دون أن يساوره مجرد التفكير فى أن يسخر من ضعف الضعيف أو عجز العاجز ، بل يأخذ بيد كل منهما ، ويرشدهما سواء السبيل ، فى رقة ورفق ، حتى لكأنه من فرط هذه الرقة وهذا الرفق ، قد صنعه خالقه ، جل وعلا ، من خالص عبير الزهر ، ومصفّى تغريد الطير .

وكان يؤمن أن له رسالة يحملها إلى الناس جميعا ، هى رسالة الحَب والغفران ، فكان يؤديها دائماً وهو مغتبط سعيد ، مدفوعاً إلى هذا بفطرته الطيبة السليمة التى لا يشوبها تكلف ، أو يفسدها ادعاء .

ولقد نعت الكاتب الإنجليزى الكبير « يوسف كونراد » صديقه جون جلزورذى بأنه « رسول الأخلاق الإنسانى » ، مقرراً فى إكبار أنه كواحد من دعاة الأخلاق ، لابد أن تكون له بشارة تبهج الصدور ، يقوم بالدعوة إليها والعمل على نشرها ، وأنه لزام عليه أن يتجه دائماً بخطابه ونصيحته لا للعقل أو العاطفة ، إنما للروح ذاتها ، داخل محرابها ، وفى أعمق أغوارها .

وفى تعليق للكاتب والناقد الفنى الإنجليزى الكبير « ريشارد شيرش » على إنتاج برناردشو المسرحى والأدبى ، راح يصف علاقته بجمهرة النظارة والقراء فقال : « لقد سخر « برناردشو » بالجمهور الذى رفعه إلى ذروة الشهرة ، وركبه بالمزاح ، هذا المزاح الذى كان له لذع السياط ، ولفه فى أكفان

باردة من التهكم الإيرلندى المرير ، إذ كان يتهمه دائماً بالقناعة المستخذية ، وبالعاطفة البليدة الغبية ، كما كان يشهر بنقائصه ، ويحط من شأن تقاليده وعاداته الموروثة ، فى غير رفق أو تقدير من جانبه لضعف الطبيعة البشرية وعدم كمالها . . »

والرأى عندى أن برناردشو كان فى تهكمه اللاذع وسخريته الجارحة ـ الناس ، هو الجزار وسكين الجزار معاً ، أو هو الجلاد والنطع والسيف جميعا ، ولذلك فقد كان فى هذه الناحية بالذات على نقيض جلزورذى ، الذى كان بعطفه وحنانه بلسما يشفى جراح القلوب المكلومة ، أو ملكاً كريماً يربت بيده الحانية الرحيمة ، على أفئدة الحزانى والضعفاء بل وطريدى المجتمع والإنسانية معاً .

وأخيراً فقد كان كل من جلزورذى ومعاصره برناردشو ، طبيباً للشعب ، معالجاً لأدوائه ، غير أن الأول كان الطبيب الحانى الرقيق الفؤاد ، الذى يعمل جاهداً كيما يقضى على الداء ، دون أن يحس المريض ألماً أو عناء ، أما الثانى فكان الجراح القاسى ، الذى يشهر مبضعه فى وجه المريض ، ويروح يبتر عضوه المعطوب دون أن يخدره ، كيما ينفى ألمه أو فى القليل كيما يخففه ، بل لعله كان فى بعض الأحيان ينفجر ضاحكاً ، بينما المريض المسكين يئن ويتوجع ويطلق من فرط الألم صرخات مدويات .

بين سومرست موم وجلزورذى

« سومرست موم » الكاتب المعاصر الكبير ، الذى يبدو

أنه لم تعوزه الصفات التى تؤهله لأن تكون حياته امتداداً لحياة « برناردشو » العنيفة لم يُعْف قراء الإنجليزية من سخريته المتطرفة وهجائه الشديد ، وتعريضه لسقطات الساقطين من البشر ، دون حذر وفى غير مبالاة .

وبالرغم من هذا فقد قرن اسم « سومرست موم » فى يوم من الأيام باسم معاصره « جلزورذى » عندما لجأ الأول إلى الإنتاج المسرحى ، مهتدياً بهدى الثانى ، ومحاولا الاقتداء به ، فى بساطته ووقاره وقوته الأخلاقية الدافعة .

ولكن طبيعة « سومرست » العنيفة ، تغلبت عليه ، وجرفته معها ، فى بحرها الخضم ، وتيارها العباب ، فانحازت به إلى معسكر شيخ الهجائين الساخرين برناردشو ، فغدا عضواً بارزاً من أعضاء مدرسته فى التهكم والسخرية والهجاء .

ولما مات « شو » تقدم « سومرست » الصفوف ، فأصبح له القدح المعلى فى هذا الميدان ، ميدان السخرية والهجاء ، بعد أن خلا له من فارسه المغوار ، فراح يذرعه ذرعاً من أقصاه إلى أقصاه ، حتى بز المبتدئ معلمه ، والتلميذ أستاذه ، أو كاد ، ذلك لأن سومرست لم يدخر وسعاً فى سبيل التحلل من كافة روابط الأدب الدمث الرفيق ، والعاطفة الحانية المرهفة ، التى كان يفخر بأنها تصله بوشائج القربى ، فى الفكر والعاطفة ، بأكبر دعاة الأدب الأخلاقيين « جون جلزورذى » وظل كذلك بضع سنين من تاريخ حياته الأدبية غير القصيرة وفى هذه المدة كتب بعض المسرحيات التى لا بأس بها ، ولكن شد ما يحز فى النفس أن يشذ سومرست بعد هذا عن كل من أستاذيه الأول والثانى ، فالمعلوم عن كليهما ، أنهما كانا ،

طوال حياتهما ، من أشد خصوم العنصرية والتفريق بين الأجناس ، لإيمانهما بوحدة البشرية ، كما أنهما كانا يهاجمان فى عنف كل ضروب الاستعمار السياسى وغير السياسى ، أما سومرست ، فقد خص ، مع الأسف الشديد ، الأجناس الملونة ، والشعوب المتخلفة ، بالنصيب الأوفى من هجومه الجارح ، ومن تهكمه اللاذع المرير .

وظيفة الفن المسرحى:

وليس ثمة خلاف فى أن وظيفة الفن المسرحى لا تتعدى أن تكون إحدى ثلاث :

١ — دراسة النفس الإنسانية والإفصاح عن خلجاتها وخواطرها .

٢ — معالجة مشاكل الحاضر ، أو مشاكل الحياة عامة ، دون التقيد بإقليم معين أو بشعب خاص .

٣ — عرض ونقض العيوب القومية ، والتقاليد غير المرغوب فيها ، أو التى لا تتفق وروح العصر ، تمهيداً للقضاء عليها أو إصلاحها .

ولن نتخطى الواقع إذا قلنا إن السواد الأعظم من كتاب المسرح الإنجليزى الحديث لم يهتموا بدراسة النفس الإنسانية والتعمق إلى أغوارها ، قدر اهتمامهم بمعالجة مشاكل بلادهم الاجتماعية والاقتصادية ، وما يتصل بها من عادات وتقاليد ، وهم غير ملومين ، فليس ثمة عيب أو تثريب فى أن يتأثر الكاتب بالوسط الذى يعيش فيه ، وأن يستجيب لصيحات الشعب التى تأخذه من كل جانب ، والتى يجب أن يتردد صداها فى أعماق نفسه ، فيصورها فى مسرحياته تصويراً فنياً تفعمه الحياة ، بل هو يلام إذا أخفق

فى أن يكون رسول وطنه ، مادامت البشرية كوحدة قد اختارت غيره لتأدية رسالتها .

فهل أخفق جلزورذى فى تأدية تلك الرسالة أو وفق ؟

وهل استجاب لصيحات الشعب أو لم يستجب ؟

وهـــل أبدع فى التصوير والتعبير أو لم يبدع ؟

الرأى عندى أنه وفق واستجاب وأبدع . . ولكن ثمة سؤال حائر بجانب هذا ، لا يفتأ يتردد على الشفاه ، تارة فى تهكم ، وتارة فى رجاء وإشفاق : هل قدر أن يكون الخلود من نصيب مسرحياته ؟ ! . . والإجابة عن هذا التساؤل لا تخلو من الصعوبة ، فهى فى حاجة إلى مقدمات لم نسق منها ما يصلح لأن يكون أساساً للفصل فى هذا الشأن ، وهى فى حاجة أيضاً إلى دراسة مطولة وافية ، وتحليل يرتكز على أصول علمية ، وكل هذا غير ميسور فى مثل هذه العجالة التى لا تزيد عن أن تكون مجرد محاولة متواضعة لدراسة مسرحياته .

اجتماعيات :

بالرغم من نشأة جلزورذى الأرستقراطية ، والثروة الكبيرة التى انحدرت إليه عن جده الرابع ، والتى ضاعفها والده فوفرت للحفيد المدلل أسباب الحياة الناعمة المليئة بالترف ، فقد عنى منذ شبابه الباكر بمشاكل بلاده الاجتماعية ، واهتم اهتماماً كبيراً بدراسة الأسباب التى يشكو منها الشعب ، والوسائل التى يجب أتخاذها لتخفيف متاعبه وآلامه ، بل والقضاء عليها ، إذ كان يؤمن إيمانا عميقاً بوحدة الإنسانية ، ويحس الرابطة القوية

التى تربطه بكافة طوائفها إحساساً صادقاً ، وليس أدل على هذا من السطور التالية التى كتبها مستر ج . م . هاريس أحد زملاء الكاتب المسرحى الكبير بجامعة أكسفورد ، فقد قال فى معرض تسجيله لذكرياته عن حياتهما الجامعية : « . . والظاهرة الفريدة التى ميزت جلزوردى عن جماعتنا فى أثنـــاء إقامته معنا بلندن كانت فيما يبديه من الولع الشديدبارتياد أفقر أحياء العاصمة حينما يرخى الليل سدوله ، مصغياً إلى أحاديث القوم ، مرحباً بكل فرصة تتيح له زيارة مساكنهم الحقيرة ، التى يخيم عليها الفقر والذلة والشقاء ، وأكبر الظن أن جلزوردى كان فى تلك الأثناء يستجمع المادة اللازمة لتكوين فكرة صحيحة عن الإنسانية فى مختلف مظاهرها ، بيد أنه لم يبد أية إشارة إلى الوسيلة التى ينوى أن يستخدمها للإفادة من هذه الفكرة وهذه المعرفة . » .

فلما انتهى جلزوردى من حياته الجامعية ، وتفرغ لحياته العملية ، ركز كل جهوده لخدمة هذه الطوائف الفقيرة التى لمس بنفسه متاعبها ، وشاهد ضروب الشقاء والحرمان التى تعانيها ، وسمع أنات الألم الصادرة من قلوب حطمها الجوع والفقر ، فراح يعرض مآسى الشعب ، ويصورها فى مسرحياته تصويراً ينبض بالحياة لأنه منتزع من صميم الحياة ، ويقترح طرق الإصلاح ، فلما حالفه التوفيق وبزغ نجمه ، وأصبح اسمه على كل لسان لم تلهه نشوة النجاح والتوفيق عن الهدف الإنسانى الأسمى الذى انبرى للدفاع عنه ، وكلما مرت الأيام زاد إيمانه بالرسالة النبيلة التى كرس حياته لها ، والتى راح يدعو إليها فى غير كلل أو هن أو ملال ، ومما يعزز هذا الرأى ما كتبه هـ . ا . فيشر ، عقب اجتماعه بالمؤلف فى أثناء تمثيل

مسرحيته الرائعة «العدالة» التى قام كثير من مجده الأدبى على ما لاقته من نجاح منقطع النظير ، فقد قال : «لقد أحسست وهو يخاطبنى بما تعج به نفسه الكبيرة من أنبل المشاعر التى يحركها نزوعه المضطرم لكل ما يتصل بالإنسانية بسبب من الأسباب ، وكم كان رائعاً حقاً أن أرى فى وضوح أن جلزورذى لم يتأثر إطلاقاً بنجاح قصته ، بل لقد تعمد فى تواضع جم ألا يسترسل فى أى حديث يتعلق بها ، وبالرغم مما كان يضفيه عليه جمهور النظارة من ضروب الإكبار وألوان التكريم ، فقد كان بعيداً كل البعد عن غرور المؤلفين ، وفى لهجة متزنة هادئة يفعمها التواضع ، ولكنها تضطرم بحرارة الإيمان واليقين ، راح يتحدث عن المساوئ الاجتماعية وأخطاء المجتمع ، حتى إن المنصت إليه ليحس إحساساً عميقاً ، بأن الرجل قد آلى على نفسه ألا يدخر وسعاً فى سبيل القضاء على هذه المساوئ وهذه الأخطاء ، ولم يكن يصعب على الناظر إليه أن يلمح مع بريق عينيه ما انطوت عليه نفسه من حنان وإنصاف وإصرار . . » .

اقتصاديات:

وبدهى أن جلزورذى وقد نصب نفسه لهذه المهمة الاجتماعية الخطيرة ، وكرس قلمه للدعوة إلى الإصلاح ، وجد أنه لزاماً عليه أن يدرس الحالة الاقتصادية وكل ما يتصل بها ، إذ لا محيص عن هذه الدراسة لمن ينشد الإصلاح الحقيقى ، لهذا وجه عناية كبيرة إلى معظم مشاكل بلاده الاقتصادية ، فبسطها وراح يدرسها على أسس اقتصادية سليمة ، فكان فى كل هذا مثال العالم المدقق الذى لا يميل مع هوى

النفس ، ولا يصرفه الغرض عما يؤمن بأنه حق ، بيد أنه بجانب صفة العالم التى حافظ دائماً على أمانته لها ، كان إنساناً . . إنساناً مستكملا لكل ما تفرضه الإنسانية على من ينتسب إليها من الاشتراك مع الناس فى العواطف : والاندماج معهم فى التفكير ، والإنصات إلى أنين البائسين منهم والرثاء لهم ، ثم الجهاد فى سبيلهم فى يقين المؤمنين بوحدة البشرية التى يجب ألا تشقى إحدى طبقاتها ، وتسعد الأخرى على حسابها .

وقد ساعدت العقلية القانونية المنظمة التى اكتسبها الكاتب بحكم دراسته للقانون بجامعة أكسفورد ، وروح الإنصاف التى فطر عليها ، على أن يوفق بين عواطفه الإنسانية التى كان من المحتمل أن تغرى أضرابه من المتحمسين للإصلاح على الدعوة إلى التمرد ضد أنظمة المجتمع الجائرة ، وبين احترامه للعرف وللأوضاع القائمة التى لا يمكن القضاء عليها دفعة واحدة ، لما يترتب على هذا من إخلال بالقانون وخروج عليه ، ومن هدر لبعض الحقوق المكتسبة ، لذلك راح جلزورذى يتلمس الثغرات التى يمكن أن يلج منها للوصول إلى أهدافه الإصلاحية الكبرى دون أن يصطدم صراحة بقوانين بلاده وشرائعها ، فإذا أضفنا إلى هذا ما حصل عليه الكاتب من خبرة عملية كبيرة بالشئون الاقتصادية فى أثناء عمله كمستشار فى المسائل القانونية لإحدى الشركات الكبرى ، التى كان يملكها أحد أفراد أسرته ، وما يسره له هذا العمل من الاحتكاك بأصحاب العمل ومرءوسيهم من العمال ، والوقوف على أسباب النزاع بين الطرفين وبين أصحاب العمل ومنافسيهم بالشركات الأخرى ، أمكنا أن نقدر قيمة المعلومات الاقتصادية الثمينة التى وفرتها هذه الفرصة للكاتب

الكبير ، فأفادته أكبر فائدة ، ومكنته من إقامة دعوته إلى الإصلاح على أسس سليمة غير متهورة ، ولذلك لا نبالغ إذا قررنا أن خدمة جلزورذى للمجتمع البريطانى قد لا تقل بحال عن خدمته للأدب عامة .

أخلاقيات :

جاء ضمن الرسالة الكريمة التى أرسلتها مسز « ايدا جلزورذى » أرملة الكاتب الكبير إلى واضع هذا الكتاب ، فى معرض الدفاع عما عمد إليه زوجها من تصوير بعض الشخصيات بطريقة تثير سخط القارئ ونفوره ما يلى : « إن الكاتب الذى يتجاهل وجود الأوغاد فى كل زمان ومكان ، ليتعذر عليه أن يصطنع من كتاباته مرآة تصلح لأن تعكس لنا الطبيعة البشرية على حقيقتها . . » ثم شفعته بقولها : « . . لم يك هناك ما يثنيه « تعنى جلزورذى » عن تصوير كل شخصية وفق الواقع الذى اختبره بنفسه ، ولذلك شد ما كان يعنى بمعرفة كل ما يمكن معرفته عن دخيلة كل شخص يكتب عنه وتفاصيل حياته . . » . . . وإن المطلع على هذا يكاد يظن أن جلزورذى كان فى كتاباته ممن يعتنقون مذهب « الريالزم » ، أو الأدب الواقعى ، الذى كان يتزعمه إلى عهد قريب الكاتب « زولا » ولكن بالرغم من صحة ما تقرره مسز جلزورذى عن زوجها الكبير ، فالنتيجة التى يصل إليها كل من يدرس أدب هذا الكاتب عن مذهبه الأدبى ، تثبت له أنه وكتّاب « الريالزم » على طرفى نقيض ، إذ الواقع الذى لامراء فيه أن جلزورذى كان فى كل كتاباته من الأخلاقيين الذين ينشدون المثل الأعلى فى كل ما يكتبون . . فبماذا نعلل

هذا ؟ ! الأمر جد بسيط ، فأنت إذ تقرأ لأحد من كتاب الأدب الواقعى لابد ستصدمك صراحته المكشوفة إن كنت ممن يتحرجون ، بل وستحس حتماً النفرة والاستحياء لجرأته البالغة فى التعبير عن آرائه ؛ خصوصاً ما يتصل منها بالغريزة الجنسية بالرغم مما يحتج به أنصار هذا المذهب لتبرير مسلكهم ، من القول بضرورة المصارحة والعلانية كوسيلة لإصلاح البيئة وللقضاء على عوامل الفساد التى تضج منها ، أما كتابات جلزورذى فتذكى فى نفس قارئها أنبل المشاعر والأحاسيس بل وتسمو بروحه إلى سماء من المثل العليا ، ولكن ليس معنى هذا أن جلزورذى « كان يتجاهل وجود الأوغاد فى كل زمان ومكان » . . أو أنه « لم يعن بمعرفة كل ما يمكن معرفته عن دخيلة كل شخص يكتب عنه وتفاصيل حياته » . . كلا ، لقد كان على النقيض من هذا كله . . كان دائب البحث والدرس والتقصى ، لا تعوزه الشجاعة كى يبرز الصورة التى كوّنها لنفسه عن أية شخصية من الشخصيات ، ولا يتردد فى التصريح بما يؤمن أنه حق ، وكان فى كل هذا أميناً للمجتمع الذى يكتب عنه ويكتب له ، ولكنه بجانب ذلك كان أميناً لنفسه ، أميناً لمثله العليا ، أميناً لعقيدته التى تتلخص فى أن الشر إذا صُوّر كما هو كان فى تصويره إغراء وتغرير ، وأن الأثيم إذا كتب عنه دون أن يقدم الكاتب بين تلافيف أسلوبه ، ما يشعر القارئ بنفوره منه وازدرائه لإثمه ، كانت جناية الكاتب على المجتمع لا تعدلها إلا غفلته .

ولهذا فنحن لا نبرئ جلزورذى من المبالغة فى تصوير بعض شخوص مسرحياته ، وإن كنا نغتفرها له فى سبيل الهدف السامى الذى كان ينشده ، دون شك ، وكذلك العاطفة النبيلة التى كان يكتب بوحى منها .

تصنيف :

قلنا إن هذه العجالة لا تزيد عن أن تكون مجرد محاولة متواضعة لدراسة مسرحيات جلزورذى ، ولابد لهذه المحاولة من تلخيص بعض هذه المسرحيات ، ولكن ليس فى نيتنا أن نلخص سوى القليل منها ، إد المجال لا يتسع لتلخيصها جميعاً ، وقد أربت فى عددها على بضع عشرات ، وليس فى نيتنا كذلك أن نعرضها على القارئ مرتبة حسب تواريخ وضعها وإخراجها ولا حسب شهرتها وذيوعها وما لاقته من نجاح ، إنما سنحاول تصنيفها فرادى أو فى مجموعات ، عمدتها وحدة الموضوع الذى تعالجه كل مجموعة ، ووحدة الفكرة التى تسوقها ، أو بمعنى أكثر دقة ، سنصنفها على أساس الناحية المعينة التى اختارها المؤلف من بين نواحى الحياة المختلفة ، وأوجه النشاط بها ، كيما ينقل عنها فى كل مجموعة صورة صادقة ، لا زيف يفسدها ، ولا طلاء يحجبها ، وسنسقط منها ما كانت الفكرة فيها حائرة مترددة ، أو ما نظن نحن أن الفكرة فيها حائرة مترددة .

حرب الطبقات والبطالة :

لعل جلزورذى أول من اصطنع من المسرح بإنجلترا أداة لتصوير الخطر الداهم ، الذى لابد أن ينجم فيما لو أهملت طبقة العامة من الشعب ، دون الإصغاء إلى مطالبها الاجتماعية والاقتصادية ، والاستجابة لها ، والمسارعة إلى إنصافها ، ورفع الحيف عنها ، بعد أن أعد الأذهان للاهتمام بدعوته ، والاستماع للإصغاء إليها ، بمسرحيته الإنسانية الرائعة

« الصندوق الفضى » التى مثلت فى عام ١٩٠٦ بمسرح « البلاط الملكى » بلندن ، والتى أجاد فيها تصوير ما يعانيه الفقراء والمعوزون من ضروب الشقاء والحرّمان .

ثم عالج مشكلة « البطالة » من الوجهتين الاقتصادية والخلقية فى مسرحيتين إحداهما بعنوان « الصراع » أو « الكفاح » وهى من أجود مسرحياته ، وقد مثلت عام ١٩٠٩ بمسرح « دوق أف يورك » والثانية بعنوان « الساذج » التى مثلت فى عام ١٩١٢ بمسرح « الملكية » بلندن . . وفى عام ١٩١٧ ظهرت مسرحية « الأساسات » فوفق فيها إلى رفع الستار عن العلة فى عدم التجاء هذه الطبقة الفقيرة المغبونة بإنجلترا إلى التمرد ، فى حين أنه لم تنج أية دولة أوربية أخرى من تألبها على الحكم القائم ، الأمر الذى أدى إلى قيام الثورات بهذه الدول وتغيير نظام الحكم فى معظمها ، ورب معترض يقول إن فقر هذه الطائفة كان من شأنه أن يباعد بينها وبين التفكير فى غير ما يسهل لها سبل الحصول على قوتها وتدبير أمر معاشها ، ومادام الأمر كذلك فلم يك ثمة مجال أمامها للتفكير فى الثورة والتألب ، وقد يشير هذا المعترض ، للتدليل على صحة هذا الرأى ، إلى ما يقرره التاريخ من أن ثورة فرنسا مثلا ، لم تقم فى العهد الذى كان الفرنسيون يقاسون فيه أشد حالات العوز والإذلال والضنك ، وهو عهد لويس الخامس عشر ، المفعم بالمساوئ والشرور ، إنما قامت فى عهد تلاه ، إذا قورن بالعهد الأول ، كان كالنعيم إلى الجحيم ، وهو عهد الملك الطيب ، لويس السادس عشر ووزيره المصلح « نكر » الإخصائى المالى الكبير .

ولكن هذا لا يعنى أن الثورة لم تقم فى العهد الأول لأن الفرنسيين كانوا لا يفكرون فى شىء قط سوى أمر معاشهم ، إنما لأن أذهانهم لم تكن قد نضجت بعد وتفتحت لفهم معنى الظلم ، والتفريق بينه وبين ضده ، ولذلك لم يكن يحسون فى الظلم المرهق الذى يقاسونه « ظلما » إذ كانوا يتوهمون أنه ليس ثمة لون آخر للحياة غير هذا اللون القاتم السواد ، الذى تعودوا عليه ، فلما استناروا بكتابة « مونتسكييه » و« روسو » وأضرابهما من دعاة الحرية ، وتعلموا من « فلتير » الثائر الساخر أن يستخفوا بكل رئاسة وسلطان ، وعلموا من كتابة هؤلاء جميعاً أن هناك معانى للحياة أسمى مما يعرفونه عنها ، اكتسبوا قوة التمييز والتفريق بين الظلم والحق ، فتيسر لهم أن يحسوا الظلم الذى هم فيه ، والذى كانوا يعانونه دون إدراك ، وإذ ذاك قامت الثورة الفرنسية التى حرقت الأخضر واليابس .

وما دام قد تقرر هذا فمما يثير الدهشة حقاً أن يشذ الشعب الإنجليزى وحده عن هذه القاعدة . . صحيح أنه قد سبق كافة شعوب أوربا إلى التمتع بحرياته والقضاء على استبداد ملوكه ، عندما توصل للحصول على ميثاق « الماجنا كارتا » منذ أكثر من سبعة قرون ، ولكن هذا لا ينفى أن حالة هذه الطبقة من الوجهتين الاجتماعية والاقتصادية كانت ، دون شك ، سيئة غاية السوء ، ومع ذلك ، لم يفكروا فى الثورة ، فتُرى ما الذى عصمهم من هذا الزلل ؟ ! . .

١ – أهى أعصاب شعوب الشمال السليمة الهادئة ؟ !

٢ – أم هو إيثار من جانب هذه الطبقة للمصلحة العامة على مصلحتها الخاصة ؟ !

٣ – أم هو إحساس العامة بأن الطبقة الحاكمة بالبلاد ومعها النبلاء والأغنياء جميعاً يفكرون ويعملون جاهدين لحل مشاكلهم بروح يفعمها الإنصاف والعطف معاً ؟ !

يجيب جلزوردى فى مسرحيته الآنفة الذكر عن هذه الأسئلة جميعاً بالإيجاب ، ولكنه يجعل للإحساس المشترك بين عامة الشعب وطبقة الخاصة بالبلاد المقام الأول .

مشكلة العمال:

إن النجاح الكبير الذى لاقته مسرحية « الكفاح » الآنفة الذكر ، والترحيب البالغ الذى قوبلت به لم يأتيا عفواً ، فقد طرق فيها الكاتب بجانب موضوع « البطالة » مشكلة اقتصادية من أدق المشاكل التى كانت تشغل أذهان مواطنيه ، بل وأذهان الأوربيين عامة إذ ذاك ، والتى تدور حول الخلاف المستحكم بين أصحاب العمل وبين العمال ، وتحاول تنظيم العلاقات والروابط التى تصل الطرفين ، والتوفيق بينهما .

ولقد كانت أوربا آنئذ تتأرجح بين مذهبين اقتصاديين متضادين : الأول قديم عريق له ما لكل قديم من مناعة ورسوخ ، والآخر حديث ، لم يستكمل بعد نموه ، ولم تستو أو تتحدد معالمه ، ولكنه ككل حديث له روعة تستهوى النفوس الطامحة ، وله طرافة تجذب إليها الأنصار ، ممن يؤمنون بهذا الجديد على أنه الحق ، وأنه الطريق الذى يؤدى إلى ما يجب اعتباره نظاماً اقتصادياً مثالياً ، يقوم على أساس من العدالة والمساواة بين

الأفراد ، وممن سينصفهم هذا الجديد ، فيرفع عنهم ظلماً يصطلونه ، ويعيد إليهم حقاً يعتقدونه .

الأول هو مذهب حرية العمل أو التصرف الذى يطلقون عليه بالفرنسية لفظ "Laissez Faire" والذى يدعو إليه « الفيزيوكرات » وهم القائلون بإطلاق الحرية الفردية ، وعدم الحد منها بأى حال من الأحوال ، ذلك لأن رقى الأفراد ، على حد ما يزعمه أصحاب هذا المذهب ، لا يتم إلا بإطلاق أقصى ما يمكن من الحرية لهؤلاء الأفراد ، حتى ينمى كل منهم مواهبه ، ويحصل من وجوه النفع على ما يوصله إليه استعداده ، وتوفره له كفايته ، بدون تدخل أو معاونة من الحكومة ، مستدلين على صحة هذا المذهب بمبدأين أفرطوافى تقديرهما حتى قالوا إن ناموس الحياة قائم عليهما ، وبالغوا فى تقديسهما والتكبير لهما ، حتى لكأنهما الحق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، أو كأنهما التنزيل من لدن عزيز حكيم ، هما مبدآ : تنازع البقاء ، وبقاء الأصلح ، بالرغم من أنه ليس هنالك ثمة صلة تربط بين هذين المبدأين وبين علم الاقتصاد ، من قريب أو من بعيد .

والثانى هو مذهب الاشتراكية أو الملكية العامة ، ويرى أنصاره أن مثل هذه الحياة ، التى يقوم ناموسها على مبدأى تنازع البقاء وبقاء الأصلح ، لا تنطبق إلا على حياة الغابات والأدغال ، حيث يعيش الوحش الكاسر لا الإنسان الذى ينشد الكمال ، والذى لا يتيسر له بحال ، لطبعه المدنى ولإحساسه بأن لا غنى له عن التعاون مع الجماعة ، إلا أن ينتظر مساعدة غيره ، وليس فى مقدوره الانفراد بتدبير شئون نفسه ، وتحصيل النفع لها ،

إلا إذا كفلت الحكومة هذه المساعدة ، فمن واجبها الإشراف على أعمال الأفراد ، وتوجيه هممهم إلى ما يحقق النفع لهم ، والسعى فى التسوية بينهم فى منافع الحياة ، حتى لا يستأثر القوى بالخيرات دون الضعيف .

وبين مذهب الاشتراكية ، ممثلا فى العمال ، ومذهب الانفرادية أو حرية التصرف ، ممثلا فى أصحاب العمل ، وغيرهم من الرأسماليين ، قام الصراع عنيفاً جباراً ، لا هوادة فيه ولا مهادنة ، فكانت قصة جلزوردى عن هذا الصراع صورة صادقة نابضة بالحياة ، أبان فيها الكاتب أن كلا من المذهبين ضار فى صورته المتطرفة ، وإن لم يخف عطفه البالغ على طائفة العمال ، إذ الرأى عنده أنه لا مفر من التدخل فى شئون أصحاب العمل تخفيفاً لويلات العمال وهم الجانب الضعيف ، وحمايتهم من استبداد أصحاب العمل بهم ، على أن يتم هذا كله بتوسط وإشراف اتحادات العمال ونقاباتهم ، ضماناً للحريات من أن تستبد بها الحكومات ، فيما لو حلت هى محل هذه الاتحادات فى عملها .

الانقلاب الصناعى

وفى مسرحيته « اللعبة القاصمة » التى وضعها عام ١٩١٨ ، و « منفيون » التى مثلت بمسرح « وندهام » بلندن عام ١٩٢٩ ، تناول جلزوردى بطريقته المبتكرة ما كان لهذا الانقلاب من تغيير شامل فى شئون البلاد الاقتصادية والاجتماعية ، فصور بأسلوبه البارع صراع الفناء الذى استعر أواره بين المصنع والمزرعة ، وما جاء فى أعقاب هذا من طبقة الأثرياء « محدثى النعمة » الذين أثروا فجاءة فلم يتيسر لهم أن يوفقوا بين نشأتهم

الوضيعة ، وما يتطلبه المركز الاجتماعى الجديد الذى رفعهم إليه هذا الثراء من ثقافة خاصة ومن آداب اجتماعية معينة ، يتعذر عليهم استيعابها ، أو اكتسابها ، بين عشية وضحاها ، بيد أن جلزورذى كعهده فى الاحتفاظ بصفة العالم الذى لا يميل مع هوى النفس ، ولا يصرفه الغرض عن تمحيص الأمور ، على ضوء الحقيقة المجردة ، لم يغبن هذه الطائفة بل أنصفها بما ساقه من دلائل تقديره وإكباره لصفات الإقدام والجلد والاعتداد التى توسلت بها هذه الطبقة فى شق طريقها إلى الجاه ، والتى أقامت على أساسها ما وصلت إليه من مجد وثراء ، ولكنه بجانب ذلك أظهر عطفاً دونه كل عطف ، على طبقة السادة ذوى المجد التالد والخلق الكريم ، مُلاك الأراضى الذين قلبت لهم الدنيا ظهر المجن ، فامتلأت هاتان المسرحيتان بعبارات الرثاء والإشفاق للحال السيئة الأليمة التى وصلوا إليها ، أو التى كانوا على وشك الوصول إليها ، لعجزهم وقصورهم عن اللحاق بهذه الطبقة الجديدة ، فى مضمار التنافس الاقتصادى الرهيب ، إذ كان يخشى القضاء على التقاليد العريقة ، التى تفخر بها إنجلترا ، والتى تمثلها هذه الطبقة الأصيلة أصدق وأحسن تمثيل .

المدينة والفطرة :

ولقد وضع « جلزورذى » مسرحية قصيرة بعنوان « الحلم الصغير » وأعقبها بأخرى ذات فصل واحد بعنوان « الشمس » تكلم فيهما بأسلوب رائع ، هو مزيج من الشعر المنثور ، الذى تفعمه العاطفة فى أرق صورها ، والنثر البليغ الذى ينوء بما يحمله من معنى ، عن الحياة الطليقة بين أحضان

الطبيعة الساحرة ، بجبالها الجبارة المتشامخة ، ووديانها الوادعة الحالمة ، وبأزهارها الجميلة وطيورها الصدّاحة المغردة ، وما تضيفه هذه الحياة على النفس الإنسانية من الطمأنينة والسلام ، ومن الإدراك الصحيح لشتى ألوان الجمال والتسامى فوق أحقاد البشر وصغائرهم ، ثم تناول بالدرس حياة المدن بما فيها من مختلف ضروب الحضارة ، وما أنتجه العقل البشرى من مخترعات كشفت عن جبروت هذا العقل ، وجعلته أكثر علماً وتقديراً لما يزخر به هذا الكون من كنوز ، وخلقت أمامه آفاقاً مترامية فسيحة من المعرفة والرجاء .

والمطلع على ما كتبه جلزوردى ينتهى إلى اليقين بأن هذا الكاتب كان يؤمن بالفطرة ، ولا يجحد المدنية أو يتنكر لها ، بل هو مؤمن بمزايا الاثنتين ، أى بمزايا الحياة المتحضرة وحياة الفطرة معاً ، ويرى أن الحياة فى وضعها الحالى لا تستقيم إلا بالتوفيق بينهما ، فليس من الحكمة فى شيء أن نحارب سنة التطور ، ممثلة فى الحضارات المتعاقبة ، فنذهب إلى مثل ما ذهب إليه « جان جاك روسو » وأضرابه من دعاة الحياة الفطرية الأولى ، الذين بالغوا فى الاستخفاف بالمدنية البشرية والحط من شأنها ، وذلك لأن التطور إنما هو من سنن الطبيعة ذاتها ، التى يدعون إلى إعلاء شأنها . . ولكنه يرى بجانب هذا أن المبالغة فى تقدير هذه المدنية — وهى غراس التطور — على حساب الحياة الطليقة غير المعقدة ، بين أحضان الطبيعة ، حيث يتيسر للمرء أن يحرر نفسه من أغلال المجتمع ، ولو إلى حين ، ويترك نفسه على سجيتها ، إنما هو دليل الخواء الروحى ، والفراغ العاطفى ، والنزعة المادية ، التى يجب الحد من سلطانها ، لصالح المجتمع نفسه .

الحياة الزوجية

ولقد تناول جلزورذى الحياة الزوجية بالدراسة فبحث غريزة المرأة بحثاً علميًّا قائماً على أصول علم النفس الحديث فى ثلاث قصص من أروع ما كتب هى : « الآنسة جوى » وقد مثلت بمسرح سافوى عام ١٩٠٧ ، و« الشاردة » ، وقد مثلت بمسرح البلاط الملكى عام ١٩١٣ ، والأخيرة وهى « الاستعراض » مثلت بمسرح « سانت مارتن » عام ١٩٢٣ ،

وخلاصة رأيه فى هذه المسألة الحيوية الخطيرة ، أن الحياة الزوجية يجب ألا تخلو فى كل أدوارها من التفاهم العاطفى بين الزوجين ، وأن مركز الزوج الاجتماعى مهما كبر ، وثراءه مهما عظم ، لا يعوضان المرأة بحال عما تنزع إليه بفطرتها من التحليق فى أجواء الخيال ، فالمرأة فى رأيه حالمة أبداً ، يستحوذ الفن علىَ مشاعرها ، سواء أكان هذا الفن ضرباً من الموسيقا أو الأدب أو غيرهما من مختلف ألوانه ، إذ هى بطبيعة تكوينها النفسى والعقلى قد اتسعت لديها منطقة الوجدان ، حتى طغت على ما عداها من مناطق الفكر ، وبالقدر الذى يتيسر للزوج أن يستهوى به هذا الوجدان ، ويشبع به هذا الخيال ، يكون توفيقه فى الاستحواذ على مشاعر زوجته، وامتلاك عواطفها ولذلك فإن كل استخفاف من جانب الرجل بهذه الطبيعة الشاعرة الحساسة ، عن عمد أو عن غير عمد ، من شأنه أن يحول دون تأجج عاطفة حبها له بل وقد يخمدها إلى الأبد ، والنتيجة المحتومة لهذا فى رأى الكاتب هى فشل هذا الزواج وما يعقب هذا الفشل من انفصال الزوج واستقلال كل منهما بحياته الخاصة دون إعلان الطلاق ، أو مع إعلانه رسميًّا

الزواج غير المتكافئ

ولقد عالج « جلزوردى » فكرة الزواج غير المتكافئ فى قصتين ، الأولى « الابن الأكبر » وقد مثلت بلندن عام ١٩١٢ ، والثانية « النوافذ » مثلت بمسرح البلاط الملكى بلندن فى عام ١٩٢٢ .

وبالرغم من العشر السنوات الطويلة المليئة بالجسام من أحداث الحياة التى مرت بين وضع القصتين ، وبالرغم مما طرأ على التقاليد والعادات بإنجلترا ، بل وبالعالم أجمع عقب الحرب العالمية الماضية (١٩١٤ – ١٩١٨) من تغيير وصل إلى الصميم ، فقد احتفظ جلزوردى برأيه فى هذا الموضوع دون أدنى تحوير أو تعديل ، وهذا الرأى وإن بدت عليه ، لدى النظرة العارضة غير المتعمقة ، مسحة الجمود وعدم التمشى مع روح التطور ، فهو فى حقيقته غير هذا ، أجل ، فجلزوردى لا يؤمن بصلاحية الزواج الذى يقوم على أساس من نشوة الحب الأولى ، أو قل على أساس من نشوة الإعجاب الأولى ، عند النظرة الأولى المزعومة ، ذلك لأن هذه النشوة غالباً ما تكون وليدة نزوة عابرة ، لا تلبث أن تزول .

ولذلك فإن جلزوردى يدعو فى جرأة المؤمن بدعوته ، إلى ضرورة مراعاة التكافؤ الفكرى والعاطفى والاجتماعى بين الزوجين ، ولكنه لا يصر على ضرورة التكافؤ الاجتماعى ، إذا ما تيسر توفر الأولين بدونه ، أعنى التكافؤ الفكرى والعاطفى ، بيد أن الرأى عنده أنه قلما يتيسر هذا .

العنصرية والأجناس الملونة

عندما قال « كبلنج » الشاعر الإنجليزى عبارته المأثورة : « الشرق شرق ، والغرب غرب ، ولن يلتقيا » . . . اهتزت أعطاف الكثيرين ، من دعاة العنصرية ، وعُبّاد القوة ، ومبتدعى فكرة الأجناس الملونة ، الذين استهوتهم آراء « نيتشة » المتطرفة عن فلسفة القوة ، وبقاء الأصلح ، والسبرمان المرتقب ، سليل الحضارات المتعاقبة ، وغراس المدنيات الصاعدة ، والتطور الدائم المستمر .

وأكبر الظن أن عبارة كبلنج ما كانت لتلاقى ما لاقته من اهتمام غير قليل ، لو أنها لم تصدر عن شاعر يجب أن يؤمن بأن رسالة الشعر فى كل زمان ومكان ، إنما هى فى الواقع رسالة الإنسانية جمعاء ، وصاحبها لهذا وإن حق له أن يشيد بذكر وطنه ويتغنى بمآثره ، فمن واجبه ألا يعرض بغيره من الأوطان ، أو يتعصب لجنس من الأجناس ، بيد أنه من خطل الرأى حقًّا أن يذهب التطرف بالكاتب أو الشاعر إلى الحد الذى يجحد عنده « العاطفة الوطنية » ويحارب فكرة القومية ، كما هو الحال مثلاً مع « ويلز » الكاتب الإنجليزى الكبير ، وغيره ممن يدعون إلى مذهب « الشعوبية العالمية » ذلك لأن هذه الدعوة ، بالرغم مما فيها من رغبة فى التسامى بالبشرية ، فهى لا تستقيم مع أوضاع الطبيعة ذاتها ، فكما أن الطبيعة قد خصت كل فرد « بشخصية » مستقلة لها مميزاتها ومعالمها ، كذلك خصت كل شعب بصفات معينة ، تكونت له من مجموعها « قومية » مستقلة لها مميزاتها ومعالمها ، ولكن هؤلاء الأفراد وهذه الشعوب يشتركون

جميعاً ، دون شك ، فى العاطفة الإنسانية المتحدة ، التى يتساوى لديها الآرى بغير الآرى ، ويلتقى عندها الشرق بالغرب .

وجلزورذى الكاتب الإنسانى الكبير من معتنق هذا الرأى الأخير ، فهو وإن تغنى بجمال الطبيعة ببلاده وسحرها ، يرى أن لهذه الطبيعة ألواناً أخرى من الجمال – لعلها أكثر سحراً وأشد فتنة – فى بقاع أخرى من أرض الله الواسعة ، وهو وإن آمن بعظمة شعبه ، فهو لا يرضى أن توصم البشرية بالعقم عن إنتاج مثل هذا الشعب ؛ فالإنسان ، فى رأيه ، أنى وجد وحيثما كان ، نزّاع بفطرته إلى الكمال ، ومن ورائه الطبيعة تمده بالقوة الدافعة ، وتنفث فى روحه من حيويتها المبدعة وشبابها المتجدد .

وأنت إذ تقرأ مسرحيته التى تحمل عنوان « ولاء » والتى مثلت بمسرح سانت مارتن فى عام ١٩٢٢ ونظيرتها « الرجل الصغير » لابد ستلمس بنفسك روح الكاتب السمحة الكريمة ، التى تفيض رحمة بالناس جميعاً ، دون تشيع لقومية من القوميات ، أو تعصب لدين من الأديان ، فهو يربت بيده فى رفق وحنان على الضعيف المنبوذ الذى لا ذنب له سوى انحداره عن والدين يعتنقان ديناً غير دين الجماعة التى يعيش بينها ، وكما خلد شكسبير بمسرحيته « تاجر البندقية » شخصية « شيلوك » الإسرائيلى كعنوان للأثرة والقسوة والحرص ، فقد خلد جلزورذى بمسرحيته « ولاء » شخصية « فرديناند » الموسوى كعنوان لتسامح القوى وعفو القادر ، وإن لم ينف ما هو معروف عن جنسه من الحرص والتقتير .

السعادة وملكوتها

ولجلزوردى مذهب طريف عن السعادة يمكن استخلاصه مما هو مبثوث بين تضاعيف معظم مسرحياته ، وإن تجلى أكثر وضوحاً فى ثلاث منها ، سبق الإشارة إليها جميعاً وهى « الشاردة » و « الحلم الصغير » و « الشمس » ومضمون رأيه بهذا الصدد أنه لا يفهم سر السعادة وينعم بها إلا كل من دق حسه ، وسمت مشاعره ، فراحت تعج فى أعماقه دنيا زاخرة بكل ما هو جميل ونبيل . . . مثل هذا الإنسان تصطفيه السعادة ، فتنشئ ملكوتها فى قلبه ، حيث تغمره أشعة أحلامها الذهبية ، وتحويه موسيقى ضحكاتها الفضية ، وتملأ كأسه من رحيق أملها العريض ورجائها الرحيب ، وعلى هذا الأساس لا يكون للسعادة وجود فى ذاتها ، بل هى تنبعث من أعماق القلب الإنسانى ، فهو منبعها المتدفق ، ومعينها الذى لا ينضب .

صحيح أن هذا القلب – وهو موطن السعادة – ملك مشاع لكل البشر ، ولكن لشد ما يختلف قلبان : قلب صحراوى قاحل ، لا يعرف عن الحياة إلا ما فيها من مادة وعرض ، وقلب آخر أسمى وأنبل ، يعنى بجوهر الحياة وما فيها من فن ، يفهم الجمال ويتذوقه ، ويلاحقه أينما وجد وحيثما كان ، وهو سيجد هذا الجمال حتماً ، مادام هو الغرض المقصود ، والهدف المنشود ، بل هو إذا لم يجده خلقه لنفسه خلقاً ، وابتدعه ابتداعاً ، وليس هذا صعب التحقيق ، ولا هو عزيز المنال ، فلكل شىء فى الوجود وجهان : أحدهما جميل ، وجماله مستمد من جمال الشعور الذى يحسه

ويسعى إليه ، ويضفى عليه من فتنته وبهائه ، فالألم والشقاء والموت ، لكل منها وجه جميل ، وهل السعادة إلا لون من ألوان الجمال ، الذى ينشده مثلُ هذا القلب ، ويبتدعه لنفسه ابتداعاً ؟ !

ولشد ما تتجلى روعة العاطفة الكبيرة فى هذه العبارة التالية ، التى قالتها أم لوحيدها ، وهى تبعث به إلى الحرب : « أى ولدى ! . . . سيان عندى أن تعود إلىّ والفوز يكلل هامتك ،أوأن تخر صريعاً بالميدان فى سبيل نصرة أمتك ، فإن عدت إلىّ حيًّا ، سعدت بك عاطفة حنانى عليك ، وإن اختطفك الموت منى ، وانتزعك كيما يكلل بك هامته ، سعدت بك عاطفة فخرى بك ، فى كلتا الحالتين يا ولدى ستضفى علىّ السعادة فى لون من ألوانها ! . . . »

الفضيلة وفلسفة القوة

شن « نيتشة » المفكر الألمانى الذى أصيب بالجنون المطبق فى أيامه الأخيرة ، حرباً شعواء لا هوادة فيها ضد من سبقوه جميعاً من قادة الفكر ودعاة الأخلاق ، بل لم يتورع عن مهاجمة أستاذه الفيلسوف الألمانى « شوبنهور » شيخ مدرسة المتشائمين السفسطائيين الذى نادى بأن : « الشقاء والألم ملازمان للبشر ، وأن الخير والشر قد ركبا فى فطرة الإنسان ، وليس ثمة من سبيل يؤدى إلى ما فيه صلاح الإنسانية ، ونصرة الخير ، إلا إذا جاء عن طريق الفضيلة وقهر البدن والعفاف » .

ولقد أراد نيتشة أن ينشئ فلسفة جديدة ، أساسها تقديس القوة فى مختلف صورها ، وهدم العقائد السائدة عن الفضيلة والدين ، حتى

لقد قال فى هذا الصدد : « إن مبدأ قهر الغرائز وحياة الزهد والفضيلة ، الذى بشر به دعاة الضعف ممن يدعونهم الناس فلاسفة ومفكرين إنما هو ضرب من المرض لا دعوة إلى الفضيلة الحقة كما يحاولون إفهام الناس ، ذلك لأن تشجيع الإنسان على محاربة غرائزه إنما هو تشجيع على الانحطاط دون شك ، فالغريزة ، فى رأيى ، والفضيلة صنوان لا يفترقان » .

أما جلزورذى ، وهو من أكبر الدعاة الأخلاقيين ، فلم تخل معظم مسرحياته وكتاباته عن رأيه فى الفضيلة يسوقه عرضاً أو عمداً للإفادة والإرشاد ، ولكنه يكاد أن يكون قد خصص ثلاثاً من أهم مسرحياته لهذا الغرض وهى : « الغابة » و « إنجليزى عتيق » وقد مثلتا بالتعاقب عامى ١٩٢٤ ، ١٩٢٥ بمسرح سانت مارتن ، والثالثة « السقيفة » وقد مثلت فى عام ١٩٢٩ بمسرح الفوديفيل بلندن .

وهذا الرأى يتفق تماماً مع مذهب أفلاطون عن العدالة أو الاعتدال ، كما لخصه واضع مقدمة جمهورية أفلاطون فى ترجمتها العربية ، والذى جاء كما يلى : « يرى أفلاطون أن العدالة فى الدولة هى أن يلتزم كل فرد بالعمل الذى يجيده ، وأن يتناول منها قدر ما يعطيها ، فالرجل العادل فى الدولة هو الرجل الذى ينزل فى منصبه المعدّ له ، وفيه يبذل وسعه ليعطى الدولة قدر ما يأخذ منها » . . . ويستطرد أفلاطون قائلاً « إن دولة كهذه هى فى الحق جماعة متسقة اتساقاً موسيقيًّا لأن كل عنصر من عناصرها يجب أن يكون فى مكانه ، يقوم بعمله كما يقدم الموسيقىّ بعمله فى فرقته الموسيقية ، أما إذا خرج الناس كل من مكانه الخاص به ،

فأصبح الجندى حاكماً ، والعامل جنديًّا ، اختلط الحابل بالنابل ، وتصدعت أركان الدولة ، وتفككت عراها ، وفسد قوامها ، وانحلت وقضى عليها ، وإذن فالعدالة هى التعاون الفعال » .

« والعدالة فى الفرد هى التعاون الفعال – على المنوال المتقدم – بين العناصر المختلفة التى تتألف منها طبيعة الإنسان ، فكل إنسان عالم من الرغبات والشهوات والآراء والعواطف ، فإذا اتسقت هذه الظواهر النفسية وتعاونت ظهر صاحبها رجلاً عادلاً فاضلاً ، وإذا اختل التوازن بينها وسيطرت العاطفة على سائر القوى ، أو نزل منها العقل مجرداً منزل الملك المستبد ، تصدعت أركان الشخصية وسرى فيها الفساد ، وإذن فالعدالة هى النظام والجمال فى النفس ، إنها للنفس بمقام الصحة للجسد » .

وهكذا يرى جلزورذى أن الفضيلة ليست فى القوة التى تسيطر عليها الغريزة ، وهذا رأى نيتشة ، كما أنها ليست فى الاستخذاء ، ونبذ القوة ظهريًّا ، وتجاهل حقيقة الغرائز ، إنما هى فى قوة الروح المتسقة غير الباغية التى هذبها الفن وصقلتها المعرفة والأخلاق .

العاطفة الدينية

وفى كثير من التهكم اللاذع والسخرية الجريئة ، هاجم جلزورذى المتزمتين المرائين من رجال الدين ، ومن يشايعونهم من طوائف الشعب المختلفة « الذين يرون القذى فى عيون الآخرين ، ولا يرون الخشبة التى تطل على الآخرين من عين كل منهم » ، وراح يرسم لهم فى براعة رجل الفن الموهوب صورة أخاذة تنبض بالحياة عن جوهر الديانة المسيحية

التى يؤمن بها ، والتى تقوم فى الواقع ، بالرغم من أنف هؤلاء المتزمتين الجامدين ، على أسس المحبة المطلقة ، التى لا تحدها نهاية ولا تنتهى عند حد ، والتى لا يشوبها حسد أو أثرة أو رياء ، ولا ترضى بما هو دون التضحية إذا لزمت التضحية ، ولا تعرف دستوراً للتعامل بين الناس جميعاً لا يرتكز على التسامح وإنكار الذات ، فالمحبة فى رأى جلزوردى هى جماع ما فى الكون من حق وجمال وجلال ، بل هى الحق أو هى الله سبحانه . . .

وجلزوردى إلى جانب هذا يكاد يدعو فيما يكتبه إلى ما يدعو إليه المتصوفون الذين يعبدون الله عز وجل أصدق وأصح عبادة ، ويقدسون اسمه تبارك وتعالى فى كل ما يرونه ويحسونه من جمال مرائى الطبيعة ، وبهاء صورها الفاتنة الأخاذة ، ويجدون متعات روحية دائمة التجدد فى تأمل مشاهدها الساحرة المختلفة ، فصوت الله ينسكب إلى أذانهم انسكاباً مع تغريد الطير ، وخرير النهر ، وحفيف الشجر ، وجلاله يتبدى رائعاً بديعاً مع مشرق الشمس ومغربها ، ورحمته السابغة تتجلى فيما ينساب مع أشعة القمر الفضية الهادئة من معانى الدعة والحنان والاطمئنان .

وقد ضمن هذا كله مسرحيته الإنسانية الرائعة « قليل من الحب » التى مثلت فى عام ١٩١٥ بمسرح « كنجزواى » وكذلك الفصل الأخير من مسرحيته بعنوان « هروب » وقد مثلت عام ١٩١٦ بمسرح السفراء .

بجانب هذا لم يخل كثير من مسرحيات هذا الكاتب من عبارات النقد التهكمى البارع ، يرسلها بأسلوب مهذب فى هذا المعنى من حين

لآخر ، تلميحاً أو تصريحاً ، فلا تخطئ الهدف الذى يرمى إليه . . . ولعل من أبرع ضروب ذلك النقد هذه الأفكوهة التى ساقها الكاتب فى إحدى مسرحياته عن صبى صغير أراد أن يتخلص من عملة مزيفة استعصى عليه التعامل بها ، فتصدق بها على أحد الفقراء !! . . . فلما اتصل خبر هذا التصرف الأثيم بجد الصبى لم يتورع عن إظهار رضائه التام عنه ، بل وراح يكشف فى غير حياء عن استحسانه وتشجيعه لهذه الجريمة الأخلاقية المستورة بقوله : « يالشد ذكاء حفيدى !! » .

ومن الظواهر التى يجب إثباتها فى غير قليل من الإعجاب أن كتابات جلزورذى فيما له صلة بهذه النزعة التصوفية المتسامية ، وما يتبعها من التأملات الروحية المستنيرة ، التى لا يشوبها جهل أو تزمت ، والتى من شأنها أن تكشف أمام أصحابها آفاقاً مترامية فسيحة من أنبل العواطف وأسمى الأحاسيس ، لم يقتصر أثرها على من يشايعون الكاتب فى رأيه ، ومن يؤمنون بما يؤمن به ، بل لقد شمل هذا الأثر غيرهم ممن يعتنقون مبادئ مخالفة بل مضادة ، فهذا « هـ . ج . ويلز » الكاتب الإنجليزى الكبير ، وهو معروف بنزعته الإلحادية المتطرفة ، وعقيدته المادية ، يكتب إلى جلزورذى ، عندما أهدى إليه الأخير قصته « فيلا روبين » التى وضعها فى عـام ١٩٠٠ ، معترفاً بالمتعة الروحية ، أوبتعبير أقرب إلى تفكير « ويلز » ، معترفاً بالمتعة العقلية ، التى أحسها فى أثناء مطالعته للقصة المذكورة .

وهاك نص كتاب ويلز إلى الكاتب الكبير :

عزيزى جلزوردى

لشد ما كنت كريماً ، إذ أرسلت إلىّ كتابك ، الذى طالعته فى متعة بالغة ، وجذل موفور ، بالرغم من اختلافنا فى الرأى ، ومن عدم إيمانى بما كتبت ، فأنا رجل ممعن فى الشك ، لا أؤمن بإلـه ، ولا أعترف بملك أو بقومية من القوميات .

بجانب هذا فأنا أنكر ما تدعوه أنت « عاطفة فنية » فهى لم تصادفنى فى حياتى حتى أتعرف إليها وأعرفها ، ومن ثمة أعترف بها ، ولكن قد تكون العلة فى إنكارى لهذه العاطفة ، ما أحسه فى نفسى من عدم استكمالى للعناصر الأولى التى من شأنها أن تيسر لى سبل فهمها .

الرأى عندى أن « رجل الفن » ما هو إلا واحد من الكثيرين ، من رجال العمل ، مع فارق طفيف هو أن الأول بحكم العمل الذى يزاوله ، قد اتسع مجال تصوره ، وامتد أفق تخيله .

ويلز

نقد فى مخطوط

فى زيارة لى إلى بريطانيا فى العام المنصرم تفضل المسئولون بالمجلس البريطانى فى لندن فمنحونى تصريحاً لزيارة جامعة برمنجهام ، حيث أُودعَت كافة المخطوطات والرسائل المتعلقة بجون جلزورذى ، وقد زرت هذه الجامعة واطلعت على هذا التراث القيم ، كما اطلعت بالمتحف البريطانى بلندن على مخطوط « قصة أسرة فورسايت البطولية » فى بضعة مجلدات كبيرة ، وقد لاحظت أن كل هذه المخطوطات أوجلها مكتوبة بخط يد الكاتب الكبير وليست بالآلة الكاتبة .

وفى هذه الأثناء سمعت عن وجود بعض رسائل لهذا الكاتب بجامعة أدنبرا باسكوتلندا ، فزرتها ، ومن هناك حصلت على نسخة فوتوغرافية ، فى تسع صفحات ، من نقد لم أجده من قبل فيما نشرعنه من نقد وتعليقات .

وكاتب هذا المخطوط الصغير هو ناقد مسرحى ، يدعى د . هـ . وليمصن ، عاصر كلا من جلزورذى وجورج برناردشو والكاتب المسرحى الفرنسى « يوجين بريبو » "Eugéne Brieux" (١٨٥٨ — ١٩٣٢) الذى كان يستهدف فى مسرحياته إصلاح المجتمع ، من الناحيتين الاقتصادية والاجتماعية ، كما كان يفعل معاصراه الإنجليزيان .

وقد رأيت إتماماً للفائدة أن أسوق للقارئ هذا النقد إذ هو يدعم معظم النتائج التى وصلت إليها عن هذا الكاتب الكبير ، خاصة فيما يتعلق بروائع مسرحياته التى وضعها قبل الحرب العالمية الأولى .

وهاك نصه :

يزعم الكثيرون أن صوت البوق الرنان المبشر بمجتمع إنسانى ينتفى منه الجور والحقد والحرمان راح يدوى من جديد ، عندما برز جون جلزورذى ككاتب مسرحى ، فمن المؤكد حقاً أن لمسرحيات جلزورذى أثراً شاملاً أكبر مما لأية مسرحيات ظهرت بهذه البلاد فى الأعوام الأخيرة .

إن حوار برنارد شو فى مسرحياته يفتن الألباب ويشرح الصدور ، ولكن ما يكتبه جلزورذى يترك فى النفس أثراً قويًّا لا يمحى ، فبرنارد شو يؤثر أن يكون فكهًا سريع الخاطر حتى ولو فقدت المسرحية حبكتها وترابطها ، بينما يؤثر جلزورذى الجد ويصر عليه ، ومع ذلك فهذا الجد من جانب جلزورذى لا يخلف وهقاً أو إخفاقاً ، كما هو الحال مع بحث مفرط فى ماديته أو عظة مطولة مملة ، ذلك لأن الرجل فنان وكاتب مسرحى كما أنه أيضاً مصلح اجتماعى .

وهذه ، فى حد ذاتها ، ميزة نادرة ، فشو مثلاً كاتب مسرحى ومصلح اجتماعى ، ولكن ما من واحدة من مسرحياته المتألقة تترك ذلك الأثر الاجتماعى القوى الذى يحسه المرء حين مشاهدته لأية من روائع جلزورذى مثل « العدالة — "Justice" » و « الكفاح — "Strife" » و « الصندوق الفضى "The Silver Box" » .

إن بريبو يعالج المشكلات الاجتماعية ويعرضها علينا على خشبة المسرح ، ولكنها فى الواقع لا تصلح للعرض إلا فى قاعات المحاضرات ، أما مشكلات جلزورذى فيمكن مناقشتها بالمنازل فى حجرات الاستقبال .

ياالجلزورذى من فنان ممتاز وصانع مبدع ! إن مسرحية الصندوق

الفضى نموذج لروعة التكوين ، ففيها يسوق الكاتب قصة عن رجل يسرق ويعاقب ، وآخر يسرق ولا يعاقب : فهناك قانون للفقراء وآخر للأغنياء .. ولكن أهى نشرة وعظ وإرشاد ؟ أهى خطبة سمجة طنانة من خطب ماربل آرتش ؟ . . . لا ، إنها ليست كذلك . . . إنها قصة إنسانية رائعة ، تنبض بالحياة من البداية حتى النهاية ، وتتميز ببراعة مذهلة ، فمع خلوها التام من المصادقات وغيرها من الاحتمالات المفتعلة نجد أن ابناً لرجل ثرى ، وآخر هو بعل لخادمة بأحد المنازل يسرقان بدافع الحقد ، وهما مخموران ، كيس نقود ، وتسير المسرحية فى بساطة ويسر ، فأشخاصها بعيدون عن كل كلفة أو جمود ، والأحداث اللاحقة تأتى فى الأعقاب ، كنتائج محتومة ، لأحداث سابقة !

وإذ كان والد الشاب سخياً فقد تيسر له أن يصرف بسخاء لينقذ ابنه من مغبة جريمته ، وقد أنقذه فعلاً ، بينما قبض على الرجل الفقير وفى حيازته الأشياء المسروقة ، فزج به إلى السجن ، وقد تم كل هذا بطريقة طبيعية خالية من كل كلفة أو تصنع !

وكان الظلم واضحاً حتى لقد قال والد الشاب لابنه : « الرأى عندى أن سلوكك لا يمكن تبريره على الإطلاق . . . إنه – إنه سلوك إجرامى ! . . . أتظن أنه لو كان أحد الفقراء هو الذى ارتكب فعلتك هذه كان سيلاقى أى عطف ؟ » . . . . (وهذا بالضبط ما يدفع المرء إلى التأمل . . . ومع ذلك فالمسرحية كاملة متقنة لا تشوبها شائبة ، فهى مفصلة للمسرح فى مبناها ، وممتعة كقضية فى سياقها ومعناها ، من البداية إلى النهاية) . . .

ويختتم الكاتب هذه المسرحية بملاحظة تدعو للتأمل ، إذ عندما

يصدر الحكم ضد جونز ، المتهم الفقير ، ويوشك أن يسدل الستار ، يصيح قائلاً : « أتسمون هذه عدالة ؟ . . . وماذا عن الآخر؟ . . . لقد سكر ! – لقد استولى على كيس النقود ! ولكن . . . ولكن (فى صرخة مكتومة) إنه المال . . . ماله هو الذى أطلق سراحه . . . هيه . . . عدالة ! . . »

وعاد جلزورذى مرة أخرى إلى هذا الموضوع فى مسرحية تحمل هذا اللفظ كعنوان لها ، ولكنه عالج فيها طريقتنا فى معالجة المذنبين ، لا العدالة المجردة .

فى هذه المسرحية يعمد شاب يدعى فولدر إلى تزوير شيك على مصرف ، مدفوعاً بعاطفة قوية – إنقاذ امرأة من زوج شديد القسوة – فيقبض عليه ويلقى به فى السجن . . . وهنا نراه مقبوضاً عليه ، ونسمعه خلال محاكمته ، ونشاهده فى السجن ، ونعرف مصيره . بيد أن هذا كله يتضاءل ويتلاشى أمام منظر الشاب فى حبسه الانفرادى ، بصورة تنطبع فى أذهاننا عنه ، ولا تفتأ تراود مخيلاتنا ، وهذا هو ما أراده الكاتب .

إنه لأمر عادى أن يستمتع المشاهد بمسرحية ما ، ولكنه أمر جلل أن ينصرف من المسرح وهو يقول : « أليس الحبس الانفرادى شيئاً بشعاً يدعو للتقزز ؟ ! » .

هنا تتجلى روعة جلزورذى : مصلح السجون ، الرجل صاحب المعرفة والنظريات الاجتماعية التى يفرضها بقوة ، عن طريق المسرح ، فى سبيل المصلحة العامة .

« القصة ، فى ذاتها ، جيدة المبنى ، خالية من التكلف فيما يتعلق بالفكرة التى تعالجها ، ولكنها كمجرد مسرحية للمسرح ، لن

يقدر لها البقاء طويلاً ، فموضوعها تعوزه الخاصية المسرحية » .

هذا الضرب من النقد لا مناص من توجيهه إلى أولئك الذين يستخدمون المسرح كوسيلة لرفع المظالم ، والتخلص من المساوئ ، وذلك لأن الموضوع كثيراً ما يكون ذا متعة عابرة ، كما أنه قد يكون فضفاضاً فى التقسيم المسرحى ، أما جلزورذى فله ميزة أصيلة ثابتة هى عزوفه التام عن الإغراق فى الحركة أو الكلام .

إنه ما من أحد يقف ليشجب الحبس الانفرادى كأنه يتوقع أن يقول المستمعون : « اسمعوا ! اسمعوا واهتفوا ! (كما يفعلون عند سماعهم عبارات حماسية من مسرحيات عاطفية معروضة بقاعة للمحاضرات والحفلات الموسيقية) ذلك لأن قصة جلزورذى تتفتح بالتدريج لأذهان المشاهدين ، وهم يرون الفساد يدب فى مفاصلها ويسرى فى أحشائها دون سرف فى التوكيد ، فجميع شخوص المسرحية يؤدون أدوارهم التمثيلية كما لو كانوا يؤدونها فى واقع الحياة ، وهكذا تترك مسرحية العدالة فى نفوس المشاهدين الانطباع الذى ينشده الكاتب المسرحى والمصلح الاجتماعى .

* * *

ومسرحية « الكفاح » هى قصة اجتماعية عصرية ، تعالج فى أصالة فنية ، واحداً من أهم شئون الساعة ، وقد سبق أن شاهدنا ضروباً من الكفاح أو النضال على خشبة المسرح فى مسرحيات كثيرة ، ولكنها فى العادة لا تخدم إلا أهدافاً ثانوية لتدعيم المسرحية فقط ، فالوغد مثلاً يقتل بأيدى العمال المضربين ، أو أن بطل المسرحية يحاول إظهار شجاعته ، أو أى شىء مصاغ على هذا النحو .

أما جلزورذى فالأمر معه جد مختلف ، ذلك لأنه يجعلنا نشاهد العمال المضربين بينما يركز اهتمامنا على الزعيمين – زعيم العمال ورئيس مجلس إدارة الشركة – وهكذا يقدم لنا مسرحية متكاملة متقنة ، لا تحتاج إلى عون أو زخرف من المتع الدخيلة المألوفة ، كأن يقحم المؤلف زعيمين من الطراز المعتاد ، ثم يدفع أحدهما إلى أن يطأطئ الرأس أمام الآخر.

والواقع أنه إذا تصادم رجلان عنيدان هذه الأيام فى نزاع بمؤسسة صناعية ، فالعاقبة لابد ستؤدى بالجميع إلى الدمار : ذلك لأن زعيم العمال لن يتراجع ، وكذلك الحال مع رئيس مجلس إدارة الشركة الذى يقول : « تراجع مرة واحدة أمام العمال ، وعندئذ لن يقف تراجعك عند حد ! » .

ويسأل ويكلين ، وهو أحد المديرين ، رئيس مجلس الإدارة قائلاً : « أتجعل من هذا الأمر مسألة مبدأ راسخ حيوى ؟ »

فيومئ رئيس مجلس الإدارة برأسه موافقاً .

هذه الإيماءة تثير الإعجاب ، فهى تنفى التردد والمراجعة ، وكلاهما من صفات الضعفاء ، أما هذا الرئيس فهو رجل قوى شديد المراس ، ليس من شيمه التردد والتكرار !

صحيح أن قصة « الكفاح » كمجرد مسرحية مكرسة للمسرح لا تعتبر مثالية ، ذلك لأنه على الرغم مما فيها من صراع مروّع رهيب ، وهو لحمة المسرحية الجيدة وسداها ، فهذا الصراع ضائع مشتت بين شخوص المسرحية ، حتى ليبدو وكأن اهتمامنا بالطريقة التى يسلكونها يزيد على اهتمامنا بالأفعال التى يؤدونها .

إن هذه المسرحية ، كصفحة من الحياة ، وكمأثرة للأدب ، قد بلغت حد الكمال ، وذلك لأن أدوارها جيدة البناء ، وحوارها ينساب حرًّا على سجيته فيبهج القلوب ويشرح الصدور.

ونرى فداحة الثمن الذى دفعه العمال وأرباب العمل جميعاً فى هذا الصراع ، ثم نعلم أنه كان على غير جدوى ، ذلك لأن شروط التصالح التى وافق عليها الفريقان فى النهاية هى بذاتها التى كانت مقترحة منذ البداية !

إن كاتباً مسرحيًّا يستطيع أن يضع أمام بصائرنا مثل هذه المناظر المتألقة المشرقة ، ومثل هؤلاء الأشخاص الذين ينبضون بالحياة حارة فائرة ، ويستحثنا على أن نفكر فى المساوئ والمظالم ، ومع ذلك يمدنا بالمتعة الأخاذة التى يهيئها تقدير معاصريه ، ويؤكد أنه لابد سيخلف للآتين من بعده ما يستحق التخليد .

هذا الرجل هو جون جلزورذى .

ولما كان هذا الكاتب ، جون جلزورذى ، لم يتجاوز الخامسة والأربعين من عمره ، فإننا نعتقد ونتوقع أن ما قدمه من إنتاج حتى الآن إنما هو مجرد عربون لما سيقدمه فيما بعد .

ولزام ألا يجول بخاطرنا أن جوًّا ثقيلاً من الوعظ والإرشاد سيرخى سدوله على مواطن إنتاجه ، أجل ، لن يحدث هذا على الإطلاق ، فجون جلزورذى ، كصانع بارع ، قلما يعلو عليه أحد ، فالمناظر ، فى مسرحياته ، تتحرك فى فتنة وفى غير كلفة ، كما أن فى مقدوره أن يضمّن مسرحياته عنصر الفكاهة المرحة فى استجابة وانسجام تام مع شخوصها .

إن جون جلزوردى لا يطلق تباعاً الدعابات البارعة والتوريات الذكية ، ولكن الأشخاص الذين يضعهم على خشبة المسرح ليسوا ممن يستخدمون هذه الدعابات والتوريات فى الحياة الواقعية ، فالفنان الأصيل لا يستطيع أن يكشف عن نفسه أكثر مما تستطيع فطنته المجردة غير المشوبة أن تضبط لسانه .

بعض مسرحيات جلزوردى
تلخيص وتعليق

الصندوق الفضى والعدالة

تمهيد للمسرحيتين

ظهرت مسرحية « الصندوق الفضى » ومثلت بمسرح البلاط الملكى فى اليوم الثالث والعشرين من سبتمبر عام ١٩٠٦ ، فكان ظهورها فتحاً فنياً فى تاريخ المسرحية الإنجليزية ، وإن لم يفطن الجمهور إلى هذه الحقيقة إلا متأخراً ، فكان أن اتجهت الأنظار بالأوساط المسرحية إلى الكاتب فى ترقب ورجاء ، بل فى ثقة وإيمان ، بما سيناله المسرح الإنجليزى على يديه من خير كثير ، فلم يخيب الآمال العريضة التى عقدت عليه ، بل استمر فى إنتاجه الخصب للمسرح منذ هذا الحين ، وبذلك ساهم فى النهضة التمثيلية فى إنجلترا بأضخم نصيب .

ثم ظهرت قصة « العدالة » ومثلت بمسرح دوق أف يورك فى اليوم الحادى والعشرين من فبراير عام ١٩١٠ فكان لها ضجة ودوىّ ، إذ خرج فيها الكاتب من التلميح الخفيف العابر الذى لجأ إليه فى القصة الأولى إلى التصريح الحاسم الحازم فناقش مبدأ العدالة بعد أن ألم به من كافة أطرافه ، فى جرأة المؤمن بما يكتب ، وفى وثوق الدارس له ، المتمكن منه ، إذ كانت الفكرة قد نضجت فى ذهنه تمام النضوج ، فخصص لها هذه القصة بأكملها .

* * *

عالج جازورذى فى مسرحيتيه الآنفتى الذكر قضيتى الرحمة والعدل ،

وما بين الرحمة والعدل من آفاق مترامية فسيحة ، تسبح فيها شتى خوالج النفس ، وعواطف القلب ، ونزعات الفكر ، تارة فى رقة ولين ، حتى لكأنها حفيف الأشجار وموسيقى السماء ، وتارة فى قسوة وعنف حتى لكأنها قصف العواصف وضجيج الحروب ، ذلك لأن فيهما من الرفق والتسامح بقدر ما فى الرحمة من رفق وتسامح ، وفيهما من الروعة والجلال بقدر ما فى العدل من روعة وجلال ، وهما إلى جانب هذا ، قصتا الإنسانية والحياة لأنهما منتزعتان من صميم الإنسانية ومن صميم الحياة .

صور جلزوردى فيهما إيمانه بالعدل على أنه ضرب من الرحمة بالجماعة ، لحمايتها من شرور الفرد الذى لا يمكن إصلاحه ، فإذا كان إصلاحه ميسوراً وشره نزوة عارضة لا أكثر ، ابتعثتها ظروف توفرت فيها أسباب الإغراء وجب أن يأخذ العدل صورة الرحمة بالفرد دون الجماعة وبذلك تتم وظيفة العدل فى أسمى معانيها .

وصور فيهما الرحمة على أنها ضرب من العدل الذى يجب أن يحمى الفرد من استضعاف الجماعة له ، ومن تعسفها فى وضع القوانين ، وتعنتها فى تطبيقها عليه تطبيقاً آليًّا ، يتجافى مع روح القانون وجوهره ، وإن سار وفق حرفيته .

* * *

« والصندوق الفضى » إلى جانب هذا ، قد اختصت بأن تكون قصة الثراء ، وما يوفره الثراء لصاحبه من أسباب تساعده على محو معالم جريمته إذا أجرم ، وعلى الإفلات من القانون ، إذا طاله القانون ، أو هى قصة الفقر الذى يضخم الهفوة التى قد يرتكبها الفقير تحت ضغط

من العوذ والإملاق ، وما يحمله الفقر عادة فى أعقابه من عار الافتضاح .

فنى هذه القصة ، يظل الغنى ، وهو المجرم الأول ، حرًّا طليقاً ، لا سلطان للقانون عليه ، إذ يستعين بماله على الاحتفاظ بأهليته وكرامته بعد إنقاذ شرفه ، بينما الفقير المسكين لا حول له ولا قوة ، تشتد حلقة القانون حول عنقه ، وتضيق وتضيق حتى تكتم أنفاسه أو تكاد .

مسرحية الصندوق الفضى

قصة الصندوق الفضى

بطل هذه القصة ، أو الضحية فيها ، رجل تعطل عن العمل ، فراح يغرق فى الخمر همومه ، فازدادت حالته سوءاً إلى سوء ، ولم يجد مناصاً إزاء هذه الظروف القاسية من أن يسمح لزوجه بالخدمة فى أحد بيوت الأسر الإنجليزية العريقة حتى يتيسر للزوجين أن يقوما بأود صغارهما .

تغيرت طباع الزوج ، إذ سدت سبل العيش فى وجهه ، وأحس بأنه أصبح يعيش عالة على زوجه ، فبات مشاكساً عنيداً ، ضيق الصدر ، لا يكاد يطيق أحداً ولا يطيقه أحد ، يفر من منزله طوال ساعات النهار وشطراً كبيراً من الليل ، فلا يعود إليه إلا مع الفجر ، أو قبل الفجر بقليل ؛ حتى لا يضاعف الآلام والأحزان التى تجثم فوق صدره ، بما يشاهده من مظاهر الذلة والمسغبة والشقاء التى خيمت على كل ركن من أركان مأواه الحقير .

وفى الهزيع الأخير من إحدى الليالى ، إذ كان الزوج يسير كعادته منكفئاً ميمماً شطر منزله ، لاقاه شاب تبدو عليه مظاهر النعمة والترف والثراء ، ولكنه مخمور لا يكاد أن يستبين ، من فرط سكره ، موضعاً لقدمه ، قد فقد كل سلطان له على نفسه ، حتى أصبح لفظه المتلعثم ، وأطرافه المرتعشة غير المتماسكة ، مثاراً للسخرية والرثاء معاً .

وكانت تلاحقه إحدى بنات الليل التعسات ، وتجدّ فى سيرها خلفه ، كما لو كانت تطارده ، والشاب يحث الخطى ويسرع مبتعداً ، دون أن تسعفه ساقاه المتخاذلتان ، حينئذ خف الزوج إلى معاونته ، فمكن له سبيل الفرار ، وساعده على الوصول إلى منزله الفخم ، حيث اتضح لدى وصولهما ، أن هذا الشاب هو وحيد الأسرة الثرية التى تقوم الزوجة بخدمتها ، وهو إلى جانب هذا معقد آمال والديه ووريثهما المرتقب .

تسلل الشاب إلى داخل المنزل ، وهو يحاذر أن يشعر أحد بوصوله فى هذا الوقت المتأخر من الليل ، ثم تذكر أنه ترك صاحبه فى الخارج دون أن يكافئه على صنيعه ، فعاد إليه وإذ لم يجد ما يمنحه إياه دعاه لمشاركته الشراب ، فلبى الزوج الدعوة فى غير قليل من التردد ، وبينما هما يحتسيان الخمر بإحدى قاعات المنزل ، ذات الرياش الفخمة ، راح الشاب يفاخر بأنه قد اغتصب من الفتاة حقيبة يدها ، انتقاماً منها لهفوة ارتكبتها معه وإذلالاً لها ، وما كاد الشاب ينتهى من حديثه ، وهو مستلق على إحدى الأرائك الوثيرة ، والزوج منتصب أمامه كتمثال حى للشقاء والبؤس ، حتى أخذه سبات عميق ، فتراخت قبضتاه عن حقيبة الفتاة ، وحينئذ انفرط ما بها تحت قدميه ، فتناثرت بضعة جنيهات ، لا تزيد ولا تقلل من ثروة هذا الشاب الثرى الوافر الثراء ، بينما كل جنيه منها هو لمن كان فى مثل حال الزوج الجائع المحروم بمثابة الحد الفاصل بين قسوة العالم ورحمة السماء ولو إلى حين .

ظل الزوج يتطلع مشدوهاً إلى المال ، وينقّل بصره بين محتويات القاعة فى أنفاس مبهورة ، إذ كان كل ما بها ينبئ عن ثراء مفرط ، وكانت

التجربة مليئة بالغواية والإغراء ، فعند قدميه قد تناثر المال ، وفى متناول يده قد تكدست نفائس التحف ، وكلاهما من حبائل الشيطان التى راحت تدعوه فى غواية الحية أن يلتقطها أو يلتقط بعضها ، يسد بها رمق صغاره الجائعين ، وكان للخمر التى نزلت إلى جوف فارغ جائع ، نشوة تسبح الجريمة فى أجوائها ، لذلك اختلت موازين الفضيلة ومعاييرها فى اعتبار الزوج المسكين وتقديره ، فلم يعد يرى إلا أنه محروم وأن غيره غير محروم ، ولم يعد يرى إلا أن القدر قد شاء أن تكون قسمته من الحياة قسمة ضيزى ، بينما قد شاء هذا القدر لغيره من لذائذ العيش ونعيمه النصيب الأكبر ، نصيب الأسد ، ولعله أحس ، بجانب هذا ، أنه إذا استولى على ما يملكه الغير فلن تلحقه سوى التبعة القانونية فيما إذا انكشف أمره ، أما التبعة الأخلاقية فهى حتماً ستتخطاه إذ هو سيقدم على ما سيقدم عليه مدفوعاً بعاطفة من أنبل العواطف وأسماها ، هى عاطفة الأبوة ، وما يتبعها من حنان وإيثار وإنكار للذات ، أما هذا الشاب الثرى فقد اغتصب ما يملكه الغير ، وارتكب ذات الوزر مسوقاً برغبة من أحط الرغبات وأخسها ، هى رغبة الانتقام والتشفى ، فهو لذلك مجرم فى عرف القانون والأخلاق معاً ، ليس فى هذا ثمة شك .

وبالرغم من هذا المنطق السليم ، فقد ظل الزوج طويلاً فى حيرة من أمره ، متردداً بين الإقدام والإحجام إذ كان نهباً مقسماً بين فطرة الخير الكامنة فى أعماقه ، ونزوة الشر التى ابتعثتها ظروف قد امتلأت بكل أسباب الغواية ، فظل يقاوم هذه النزوة حتى تصدعت أركان مقاومته ، وانهارت أمام تيارات الإغراء المتلاحقة التى كانت لا تفتأ تتدافع إلى موضع

التفكير من نفسه ، وأخيراً مد يده فالتقط المال المسروق أو المسلوب وخبأه في جيبه ، وقد تصبب عرقاً ، ثم قنع من كل النفائس التي كانت تملأ الغرفة بصندوق فضى للسجائر كان هو أقرب هذه التحف إلى متناول يده ، حمله وهو لا يكاد يعى ما يفعل ، ثم تسلل فى هدوء إلى الخارج دون أن يشعر به أحد إطلاقاً ، فوصل إلى منزله فى إعياء شديد .

وفى الصباح اكتشفت سرقة الصندوق الفضى ، فحامت الشبهات حول الزوجة المسكينة ، إذ كانت حديثة العهد بخدمة هذه الأسرة ، ثم أخذتها الريب من كل جانب ، فحاولت عبثاً أن تدفعها عن نفسها ، إذ كان باقى الخدم ممن قضوا فى خدمة الأسرة سنوات ، وكانت أماناتهم فوق كل شك أو ظن ، لذلك سرعان ما دهم البوليس منزلها حيث عثر على الصندوق وعلى المال المسروق ، الذى لم يتيسر للزوج أن يرشد عن مصدر شريف له ، ولما أراد رجل البوليس أن يقود الزوجة إلى المخفر للتحقيق معها فى التهمة الموجهة إليها ، حاول الزوج أن يثنيه عن هذا العزم ، محتجاً لديه أنه هو وحده المسئول عن هذه السرقة ، وأن زوجه لا ناقة لها فيها ولا بعير ، ثم أبدى استعداده لأن يذهب معه إلى المخفر للاعتراف رسمياً بهذه الوقائع .

لم يكترث رجل الشرطة لأقوال الزوج ، متوهماً أنها إنما قيلت للتغرير به ، ولتمكين الزوجة من الإفلات من يده ، فلم يعر احتجاجه أى اهتمام ، وأصر على موقفه من الزوجة ، حينئذ ثار الزوج وتهيج ، إذ أحس فى إصرار رجل الشرطة على أن يسوق زوجه البريئة إلى السجن ظلما دونه كل ظلم ، وامتهاناً لكرامته كرجل دونه كل امتهان ، فاعتدى عليه كى

يحول بينه و بين تنفيذ هذا الغرم الجائر ، فكان هذا سبباً فى أخذ الزوجين عنوة إلى المخفر ، بعد أن تفرغت من تهمة السرقة الموجهة إلى الزوجة البريئة المسكينة ، تهمة أخرى وجهت إلى الزوج ، هى تهمة التعدى على القانون وعلى ممثل السلطة التنفيذية فى أثناء تأدية وظيفته .

فى هذه الأثناء ، كانت فتاة الليل ، التى اغتصب الشاب ، وهو مخمور ، حقيبة يدها ، قد اهتدت إلى منزله ، وراحت تفضى إلى والديه بما حدث ، فوقع النبأ عليهما وقعاً شديداً ، خاصة وقد ظهر من سياق الحديث أن شخصاً أجنبيًّا عن المنزل كان بصحبته ، وأنه من المحتمل بل المرجح ، أن يكون هذا الأجنبى هو سارق الصندوق الفضى ، وإذ خشيا أن يؤدى الأمر إلى الكشف عن جريمة ولدهما غير الهينة ، عَمَدا من فورهما إلى إزالة معالم هذه الجريمة ، إذ أعادا إلى الفتاة حقيبتها ، وأجزلا لها العطاء ، وبذلك استرضياها ، وضمنا صمتها وعدم تقدمها للسلطات المختصة بشكواها ، ولكنهما فوجئا بالقبض على الجانى ، ومعرفة شخصيته ، فتجددت مخاوفهما من افتضاح جريمة الابن المستهتر ، فكلفا أحد المحامين البارزين لتسوية الأمر ، ولكن الفرصة كانت قد أفلتت بعد أن قبض على الزوج بتهمة التعدى .

وعقدت الجلسة للنظر فى تهمتى السرقة والتعدى ، فراح الزوج يعترف بذنبه ، فى غير مواربة أو التواء ، فكأنما هو سعيد بن حميد الأندلسى الذى كتب معتذراً يقول : « أنا من لا يحاجك عن نفسه ، ولا يغالطك عن جرمه ، ولا يستعطفك إلا بالإقرار بالذنب ، ولا يستميلك إلا بالاعتراف بالجرم . . »

فهل قدر القضاء هذا الاعتراف بالجرم من جانبه ؟ !
وهل التمسوا له العذر أو بعض العذر فيما كان يقاسيه
من ألوان الحرمان ، ومن تأثير الخمر عليه ؟ !

كلا . . وبالرغم من هذا راح يكشف فى جرأة ساذجة عن العوامل النفسية التى دفعته إلى التعدى على رجل الشرطة ، مؤكداً بأنه تصرف كرجل كان عليه أن يحمى المرأة التى تحمل اسمه من عنت لم يكن هناك ما يبرره ، مادام قد اعترف لرجل البوليس بجرمه ، وأنه وحده من يجب عدلا أن يتحمل وزر جريمته .

فهل قدر القضاء هذا الدفاع الذى لاصناعة فيه ولا تكلف ؟ !
وهل فطن ممثل القضاء إلى ما فى هذا الدفاع من بساطة وبراءة ؟ !

كلا . . فالقانون فى عرف جلزورذى جامد لا يتأثر بالعوامل الإنسانية المحضة ، ولذلك فقد ختم المؤلف قصته بإدانة الزوج وحده بعد أن تجلت براعة المحامى الموكل عن الشاب فى الاستعانة بحرفية القانون لمنع الزوج المسكين من الخوض فى ذكر التفاصيل التى كانت لابد ستشرك الشاب فى الإدانة .

وفى أثناء هذه المحاكمة وضع جلزورذى على لسان الزوج المضطهد الساذج عبارة نطق بها ، بعد أن حيل بينه وبين الإدلاء بأقواله عن ظروف التقائه بالشاب ، إذ صاح قائلاً فى مرارة ساذجة ، أو فى سذاجة مرة : « وتقولون إن هذه عدالة ؟! » وهى عبارة بالرغم من بساطتها الظاهرة ، قد حملت بين تضاعيفها ما يحسه جلزورذى من استنكار للجمود الذى تطبق القوانين بمقتضاه فى كثير من الأحيان ، والذى خصص لمعالجته فى عام ١٩١٠ مسرحية مستقلة هى : « مسرحية العدالة » .

مسرحية العدالة

قصة العدالة :

المتهم فى هذه القصة شاب فى مستهل العقد الثالث من عمره ، يشغل وظيفة كتابية بمكتب أحد كبار رجال القانون ، ممن يحرصون على السمعة الطيبة والشهرة الكريمة التى حصلوا عليها بحق ، وجريمة الاختلاس التى ارتكبها هذا الشاب وإن بدت كبيرة غير هينة ، وكشفت عن تفكير ملتو غير صريح ، فقد كان لها مبرراتها ، أستغفر الله ، أريد أن أقول كان لها دوافع الإغراء إليها ، أجل ، فقد كانت هناك حواء بضعفها المقهور القاهر ، وذلها المستكين الجارف ، ودمعها الهتون الذى يحيي ويميت ، بل كانت هناك فورة الصبا الغرير وأحلامه ، أي سذاجة الصبا الثائر واقتحامه ، بل كان هناك جماع هذا كله ، جماع هذه النزوات والمغريات الدافعة ، التى إذا انطلقت فهى الشيطان قد فك من عقاله ، أو السيل ينهمر متدفقاً محطماً ، لا يبقىَ على شيء يعترض طريقه ولا يذر .

لقد أحب هذا الفتى ، فكان فى حبه نموذجاً للتضحية وإنكار الذات ، وجد فتاة أحلامه فى زوجة مهيضة الجناح ، محطمة القلب ، قد عصف الحرمان والإذلال بكل ما كانت تنطوى عليه نفسها من أمل وإيمان ، واستغل زوج شرس غشوم ضعفها وتعاستها ، فأذاقها من الهوان ألواناً ، وسقاها من كأس الحياة الصاب صرفاً ، فحنا عليها هذا الشاب المتهم حينما أعوزها الحنان ، وراح يغمرها بفيض من نبع روحه ، وراح يملأ

كأس حياتها من ذوب قلبه ، حتى حوتها نشوة هذا الحب الجارف الجديد فانتزعت روحها أو كادت من الهوة السحيقة ، التى كانت قد تردت إليها وباتت ترقب يوم الخلاص من ربقة زوجها ، حتى تنعم ببزوغ فجر حياتها الروحى ، هذه الحياة التى كان قد حواها الجفاف وشملها الفراغ الرهيب .

كان حبه لها حباً جارفاً غريراً بقدر ما كان بريئا ، أشبه ما تكون دوافعه وظواهره بدوافع فروسية القرون الوسطى وظواهرها ، فهو لم يفكر يوماً أن ينتهز فرصة يأسها أو يستغل ما كان يعلمه ويحسه من استجابتها لنداء قلبه المدوى وحبه الكبير ، بل راح يرقأ دموعها الصبيبة ، ويضمد جراح قلبها العميقة ، ويضفى عليها من حدبه وحنانه فى سخاء دونه كل سخاء ، قانعاً عن كل هذا ببسمة الرضا تنير وجهها الشاحب ، فتتهلل لها روحه ، وبدمعة الجزل الشاكر تنساب من جفنها الكليل ، فتروى ظمأ قلبه ، وتملأ هذا القلب بالرغبة فى التضحية ، والاستعداد للتجرد والإيثار .

ولأجلها ارتكب جريمته ، بل لأجلها باع روحه للملائكة أو للشياطين ، فهو ما كان يدرى ولا يعنيه أن يدرى ، فى سبيل إنقاذها من بين براثن زوجها الوحش العربيد ، أين موقفه من الملائكة أو الشياطين .

ولكنه بالرغم من هذا دبر جريمته فى إحكام بارع ، ونفذها فى خبث غير برئ ، حتى كاد أن يوقع فى حبالتها شابا آخر من زملائه بالعمل ، شاء المتهم ، أو شاءت الظروف ، أن يكون هو الضحية البريئة على مذبح غوايته ، أو الحمل الوديع الذى أعد للفداء . ولولا القدر الساخر أو الساهر ، لما نجا هذا الزميل المسكين من الشباك الثقيلة التى للقانون بحكم

عمله مع أحد رجال القانون ، فقد حقت عليه تبعة الجريمة كاملة غير منقوصة ، وبوعد بينه وبين كل ما من شأنه أن يكون سبباً لتخفيفها ، على حد ما ذهبت إليه هيئة المحكمة التى قررت إدانته ، ولم تجد أى وجه لاستعمال الرأفه معه ، لخطورة : الجريمة التى ارتكبها وللضرر الذى كان لابد سيلحق المجتمع إذا لم يؤخذ المتهم بالشدة حتى يكون هذا رادعاً لغيره مما قد تسول لهم نفوسهم الشريرة التفكير فى الإقدام على مثل جريمته ، إذ أن حماية المجتمع وضمان الأمن له هما الهدف الأول الذى يجب أن ينشده القضاء على حد ما قررته هذه المحكمة ضمن الحيثيات التى بنت عليها الحكم الصارم الذى أصدرته ، والذى يقضى بحبس هذا الشاب التعس ثلاث سنوات مع الشغل .

* * *

ويبدو أن جلزورذى لم يرتب هذا الحكم الصارم ، بالرغم من الدفاع الرائع الطريف الذى ساقه على لسان المحامى عن المتهم ، إلا لأنه كان يحس إحساساً قوياً بأن القضاء فى إنجلترا كان ينقصه إذ ذاك عنصر حيوى هام ، هو فهم الطبيعة البشرية على حقيقتها بما فيها من ضعف وخور ، وما يستلزمه هذا الفهم من دراسة عميقة لهذه الطبيعة بعد تحليلها إلى عناصرها أو غرائزها الأولى ، وإلا لأنه كان يؤمن فى عام ١٩١٠ وهو تاريخ وضعه لهذه القصة ، بما وصل إليه علم النفس الحديث من نظريات كاد أن يقطع بصحتها ، تتلخص فى أن الجريمة ضرب من المرض قد يعتوربعض النفوس ، وأن كثيرين من مرتكبي الجرائم ، على هذا الأساس ، إنما هم مرضى ، يجب أخذهم باللين والرفق ، والإشراف على علاجهم حتى

يبرأوا وتصح نفوسهم .

ولكى يتيسر لك أن تكون فكرة صحيحة صادقة عن هذا الإحساس ، أو الاقتناع ، الذى كان يفعم صدر جلزورذى ، كمصلح اجتماعى ، سأنقل لك فيما يلى الشطر الأكبر من أقوال الدفاع التى لم يعرها المحلفون ولا القاضى الذى أصدر الحكم ضد المتهم المنكود أدنى التفات :

الدفاع :

يا حضرات المحلفين

لقد بدا من سياق استجواب ممثل النيابة للمتهم والشهود أنه يميل إلى الزراية بالأسس التى يقوم عليها الدفاع فى هذه القضية ، والسخرية منها بل وتسفيهها ، وإنى لأجد لزاماً علَىّ أن أصرح ، فى غير لبس أو إبهام ، أننى لن أوفق فى دفاعى ، لا ولن أصل بأى حال من الأحوال إلى موضع الاقتناع من نفوسكم إذا لم تكن أقوال الشهود التى سمعتموها الآن قد ملأتكم إيماناً أن المتهم غير مسئول جنائياً عن فعلته ، التى ارتكبها فى لحظة كان قد تلاشى فيها كل سلطان له على نفسه ، وفقد فيها كل قدرة للتحكم فى تصرفاته . . لحظة خواء أو فراغ شامل ، طغى على الفكر والخلق معاً ، ابتعثها فى نفسه ذلك الانفعال العنيف الذى عصف بكل مشاعره لدى علمه بنبأ التعدى الوحشى المجرم الذى كان سيقضى على أعز الناس طراً إليه ، والذى راح ينهش روحه فى قسوة دونها كل قسوة ، فكانت الآلام الهائلة التى عناها وهو فى موقف اليأس العاجز عن إغاثة من يحب ، سبباً فى انتزاعه من دائرة العقل ، وقذفه بعيداً ، حيث وقع فريسة سهلة ميسورة للوثة عارضة

خاطفة وخيل عابر مؤقت .

لقد أشار صديقى ممثل النيابة إلى ما سماه « وهج العاطفة » ثم راح يؤكد فى لهجة الواثق أننى أريد أن أضفى من هذا الوهج المزعوم على دفاعى للتأثير عليكم ، وللاستحواز على مشاعركم ، وظاهر أن ممثل النيابة قد جنح فيما ادعاه إلى غير الواقع ، ذلك لأنى إنما قد عمدت – فى بساطة لا يفسدها طلاء أو زخرف – إلى الكشف لكم عن عنصر قد يكون غامضاً أو مختفياً ، ولكنه قائم صحيح ، عنصر هام من عناصر الحياة النابضة المختلجة ، التى تربض عادة – بالرغم مما قد ينعتها به الاتهام – خلف كل جريمة ، فى ترقب وانتظار .

يا حضرات المحلفين

إننا نعيش فى عصر بالغ التحضر ، ولشد ما يثير نفوسنا أن نشاهد منظراً يحمل طابع العنف والقسوة حتى ولو لم يكن له مساس بأشخاصنا أو بأحد ممن يلوذون بنا ، فما الحال إذاً لو كان ضحية هذا العنف سيدة . . وجيبة أيضاً ؟ ! فليحاول كل منا أن يصور لنفسه ما لابد أن يساوره من شعور لو أنه كان مكان المتهم ساعة ارتكابه لفعلته وله مثل سنه الصغيرة ! ! . . ثم دعونا نمعن النظر إليه لعلنا أن نستشف شيئاً من وراء قسمات الوجه وتقاطيعه . . تطلعوا إليه ! ! . . ياللمسكين . . إن هذه القسمات لتكشف عن نفس مضطربة ، وعقل هزيل ، وخور روحى لا يفوقه خور ، ولكنها أبعد ما تكون عن نزعة الشر ؛ هذه القسمات وإن لم تنبئ عن صلابة وعزم ، فهى لا تفصح عن دهاء أو جنوح إلى الاثم ؛ كل ما تنطق به هذه القسمات أن صاحبها واحد من الكثيرين أمثاله ، الذين تعوزهم الإرادة الغالبة ،

التى لا تتحطم لدى أول صدمة يوجهها القدر إليها ؛ إنه الضحية التعيسة لعواطفه ونزوات قلبه .

لقد سمعتم أحد الشهود يصف نظرات المتهم ساعة ارتكابه لفعلته فقال : « كانت نظراته مضحكة » . . وقد أثار هذا الوصف سخرية ممثل النيابة ، ولكن صدقونى يا سادة إنه وصف صحيح ، إذ هو الوحيد الذى يعطى فكرة صادقة عن حقيقة النظرات الزائغة غير المستقرة التى تنبعث من العين إذا ما وصل الإنسان فى تفكيره ، من فرط الإعياء واليأس ، إلى الحد الفاصل بين دنيا العقل وما هو خارج عنها ، مما لا يتصل بهذا العقل بأية صلة .

إنى لأجد لزاماً علىّ أن أراعى الصدق فيما أقرره ، لذلك لن أذهب إلى القول بأن الفترة التى انتفت فيها عن المتهم المسئولية العقلية ، زادت عن أن تكون مجرد ومضه خاطفة اختل فيها ميزان الفهم والحس معاً ، أو تعطلت فى أثنائها وظيفة كل منهما ، ولكنى أرى أنه مادامت التبعة الجنائية عن جريمة قتل النفس ، لا تلحق المرء الذى يقضى على نفسه تحت تأثير مثل هذه الحال النفسية الأليمة ، فمن حقه ، عدلا ، أن يعفى من كل مسئولية قانونية أو قصد جنائى إذا ما ارتكب أية جريمة أخرى تحت تأثير مثل هذه الحال النفسية الآنفة الذكر ، بل وإنه للزام على المجتمع أن يعامله كمريض .

سادتى

لست أنكر أن مثل هذا الدفاع عرضة لأن يساء استخدامه إذا لم يعالج فى تبصر وفهم ، ويؤخذ فى غير القليل من الحذر والاحتراس ،

ولكن لاجدال فى أن القضية التى بين أيديكم تحتم أن يكون الشك فى صالح المتهم .

لقد سمعتمونى وأنا أسأل المتهم عما كان يساوره من تفكير فى أثناء الأربع دقائق الفاصلة ، التى ارتكب فيها فعلته .

فماذا كان جوابه ؟

كنت أفكر فى وجه رئيس الكتبة العجوز الطيب !

وهذا حق إذ يستحيل على إنسان مهما كانت سذاجته ، أو كان دهاؤه ، أن يخترع مثل هذه الإجابة .

إنها إجابة يفيض الصدق المطلق الصارخ من كل جانب من جوانبها .

وما دلالة هذه الإجابة إذن ؟ !

ليس هناك ما يصح أن نسوقه كدلالة وكتعليل لها سوى أن ومضة خاطفة صاعقة كانت قد طغت على عقل المتهم واستبدت به ، فعطلت الإدراك والإحساس معاً عن أداء وظيفتيهما .

يا حضرات المحلفين

لقد لاحظتم هذه العاطفة الطاغية الجبارة ، التى تصل ما بين المتهم وهذه المرأة ، التى جاذفت بالمثول بين أيديكم لأداء شهادتها معرضة نفسها فى هذه السبيل لانتقام زوجها الرهيب ، وبدهى أنه لم يساوركم أدنى شك فى الحزن الكبير الذى كان يجثم على صدر المتهم ساعة أن ارتكب فعلته ، هذا الحزن الذى هدّ كيانه ، والذى يثير عادة فى نفوس من هم على شاكلته من ضعاف الأعصاب ، ثورة هوجاء عارمة تعصف بكل ما تنطوى عليه نفوسهم من رجاء وخير وإيمان .

لقد كانت لحظة خاطفة ولكنها ملتاثة رهيبة ، أقدم فيها المتهم على ما أقدم ، دون وعى أو إدراك ، أما بقية تصرفاته فقد أعقبت هذه الفعلة الأولى ، كما يعقب الموت أية طعنة نجلاء تخترق القلب ، أو كما يتدفق الماء من إناء مقلوب .

أجل ، لم يك ثمة سبيل للاختيار أمام المتهم بعد التغيير الذى أحدثه بالحوالة المالية ؛ كانت لجة القانون قد ابتلعته . . ولهذا فلا تبعة عليه فيما عمد إليه بعد هذا من تغيير بسجلات المكتب خشية الافتضاح ، ولا فى اعتصامه بالصمت وعدم اعترافه بفعلته قبل افتضاحها ، وأخيراً لا لوم عليه إذ فكر فى الهروب ، مع من ضحى نفسه لأجلها ، إلى بلاد نائية تجهل ماضيه المريب غير الناصع ، أجل لا لوم عليه ولا تثريب فى هذا ، فقد جاءت هذه التصرفات جميعها كنتيجة حتمية لفعلته الأولى التى سبق أن قلنا إنه ارتكبها دون وعى أو إدراك .

وأخيراً فإن دلت هذه التصرفات كلها على شىء فإنها تدل على ما ابتلى به هذا الشاب من ضعف خلقى ، لا على أى قصد جنائى مدبر مع إصرار سابق .

فهل نسمح بالقضاء على إنسان لا لشىء سوى أن الظروف أو القدر قد شاء له أن يولد ويشب وهو عبد لخلق ضعيف متهالك ؟ !

سادتى

فى كل يوم يطأ قانون هذه البلاد كثيرين من أمثال هذا السجين فى غير رفق ، ويقذف بهم من حالق إلى وهدة الدمار ، لانعدام البصيرة النفاذة التى تتغلغل إلى أغوار النفس الإنسانية فتخترق حجبها ، وتستشف الحقيقة من بين تلافيفها ، هذه الحقيقة التى تثبت أن هؤلاء المساكين إنما

هم مرضى لا شأن لهم بالإجرام، ولا بالمجرمين .

وإذن فلو أنكم حكمتم بإدانة المتهم ، وعاملتموه على أنه من عصابة المجرمين الخاسرة ، فليس ثمة احتمال ، كما أثبتت التجارب ، فى ألا يصبح واحدا منهم ، وبذلك تكونون قد صنعتم بأيديكم مجرماً جديداً .

إنى لأطلب إليكم ، فى رجاء واستعطاف ، ألا تصدروا حكماً يقذف بالمتهم إلى أعماق السجن الرهيب ، ويقضى عليه إلى الأبد .

إن العدالة آلة ، لو بدأنا تحريكها ، خرج زمامها من أيدينا ، واستحال إيقافها ، فهل قدر لهذا الشاب أن تبطش به هذه الآلة الرهيبة ، وتسحقه سحقاً لفعلة أسوأ ما تنعت به أنها ضرب من الخور ؟ !

هل قدر له أن يصبح واحداً من البحارة التاعسين الذين عصفت بهم الأنواء والأعاصير ، وهم عاجزون لا حول لهم ولا قوة ، قد سلبوا كل إرادة مذ حملتهم هذه السفن المشئومة التى يطلقون عليها لفظ « السجون » . . وهل قدر له أن يخرج إلى هذه الرحلة الشاقة ، التى تظللها الكآبة ويحفها الموت ، والتى لا يعود من روادها سوى القليلين ؟ !

أو هل ستهبونه فرصة أخرى يعود فيها إلى محجة الهدى ، بعد أن ضل الطريق ، وحاد قليلا عن سواء السبيل ؟ !

أستحلفكم بالله أيها السادة ، وبكل ما هو عزيز لديكم ، أن تترفقوا بهذا الشاب المسكين فلا تلقوا به إلى التهلكة وبئس المصير .

إن كلمة واحدة منكم قمينة بأن تبدد عن صفحة حياته ما يشوبها الآن من ضباب ، فإن ضننتم بها عليه ، جعلتم حياته أشبه ما تكون بظلمات فى بحرلجىّ يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب .

أيها السادة

لو أنكم حكمتم بالإدانة ، فلن تمر هذه التجربة القاسية على من كان فى مثل سن المتهم وتكوينه العقلى ، ويخرج منها سليماً غير معطوب . . ولكن إذا كان لابد من العقاب فثقوا أنه قد شرب كأس الألم حتى الثمالة ، منذ أحس وطأة القانون وعرف صرامته ، ودهمته آلته الجبارة .

لقد كفّر المسكين عن فعلته ، بل وعن أضعافها بدموعه وعذاب نفسه ، طوال الشهرين المنصرمين وهى الفترة التى مرت منذ أن قبض عليه .

سادتى

إن كلمة الحق المدوية التى تدك الجبال دكاً ، قد لا تصل إلى بعض الأسماع إلا همساً ، أما لدى المطهرين فهى جماع ما أودع فى الكون من جمال وجلال ، ولقد تطهر المتهم ، بما سكبه من دمع وما قاساه من ألم ، فلا ضيعة للحق عنده ، ولا ردة إلى الضلال بعد أن أضحى من المطهرين ، فاعملوا ياحضرات المحلفين من جانبكم أيضاً على تدعيم هذا النقاء الذى نفذ إلى قلب السجين الماثل أمامكم ، والإيمان الذى عانق روحه ، بإفراجكم عنه حتى يتعلم كيف يفخر بكمال الإنسانية التى ينتسب إليها ، عندما يحس أن ما فى هذه الإنسانية من الرحمة وجمالها ، لا يقل عما فيها من العدالة وجلالها . . »

* * *

فهل كان إخفاق هذا الدفاع المجيد الحار دليلا على أن قائله كان — على حد قول الحريرى — سادراً فى غلوائه ، جامحاً فى شطحاته ، جانحاً إلى خرعبلاته ؟ !

أم كان تفكيره إنسانياً عميقاً ، وصل من الحياة إلى لبابها ، ولم يقنع من الحقيقة إلا بجوهرها ، فسبق عصره ببضع سنين ، ولم يتيسر لمعاصريه من رجال القضاء أن يلحقوه ولا أن يفهموه ؟ !

ليس فى هذا الرأى الأخير شك ، فالدفاع ، كما قرأته ، خصب سخى ، بعيد عن سفسطة السفسطائين وإغراق البيزنطيين ، وهو إلى جانب هذا ، قد بنى إلى حد كبير ، على أسس علمية صحيحة ، فكل من قرأ الفيلسوف « لوك » يعلم أن من رأى هذا الفليسوف : « أن كل تغير فى الذاكرة يصحبه تغيير فى الشخصية » . . . وقد بيّن « برجسن » الفيلسوف فى كتابه « المادة والذاكرة » أن الشخصية والذاكرة اسمان لشىء واحد ، وأن الذاكرة هى كل شىء غير مادى فى الإنسان .

فإذا طبقت هذه الحقائق العلمية على تصرفات هذا الشاب ، لكان جلياً أن العقاب الذى وقع عليه كان جائراً ، مادام قد ثبت أنه كان ساعة ارتكابة لفعلته فى غير وعيه ، أو بتعبير آخر ، كانت قد تغيرت ذاكرته فتغيرت ، تبعاً لهذا ، شخصيته وبذلك اكتسب شخصية أخرى جديدة ولكنها مؤقته ، ارتكب فعلته تحت تأثيرها ، فلما عاد إلى وعيه عادت إليه شخصيته الأولى ، وهى شخصية هادئة بريئة ، أو فى القليل ليست وثيقة الصلة بفكرة الإجرام . .

وبعد . . لقد فغر وحش السجن الكاسر فاه ، فابتلع الضحية الجديدة وظل مطبقاً عليها فكيه حتى تكاملت ثلاث سنين طويلة بعدها لفظ الوحش ضحيته وقد أصبحت حطاما ، لا صلة تربطها بالحياة ولا بالأحياء ، فأعرض المجتمع عن الشاب المنكود ، وبات لا يلاقيه الناس من حيثما

أقبل أو أعرض إلا فى ازدراء مذل ، وفى تحقير أهون منه الموت ، حتى جف كل نبع للخير فى قلبه ، وامتلأ بالحفيظة والحقد واليأس . .

والجوع . . قاتله الله ! ! . . لقد كاد أن يستل ما تبقى فى قلب الشاب من إيمان فى رحمة السماء ، بعد أن فقد إيمانه فى رحمة الناس ، ولقد ابتدأت فكرة الجريمة تقحم نفسها إلى رأسه وتسد مسالك الحس من نفسه .

لقد كان من حقه أن يعيش ، فهل يلومه أحد إذا تمرد وثار ضد أية شريعة أو عرف أو قانون ينتزع منه هذا الحق ؟ !

وهل يلومه أحد إذا حاول أن يحطم الأغلال التى تجذبه إليها فتمنعه عن ورود الماء بينما هو يحترق من فرط الظمأ أو يكاد ؟ !

لا . . لن يلومه أحد ، وإذن فمن حقه أن يمزق هذه الوثيقة الظالمة الجائرة التى دمغته بسمة المجرمين ، وانتزعت منه حقه الطبيعى فى أن يحيا إذ سدت فى وجهه كل سبل الرزق .

ولقد فعل . . ولكن ، ولكن أكان من حقه أن يزوّر وثيقة أخرى يتقدم بها إلى أصحاب الأعمال كدليل على أنه لازال إنساناً كباقى الناس ، أو فى القليل كدليل على أنه أحد الأحياء ، سائمة أو آدميين ، فى حاجة إلى الطعام الذى قد حرم منه بحرمانه من العمل ؟ !

لقد أغلق فى وجهه كل باب للعيش وفقد كل رجاء فى الارتزاق بعد أن أصبح فى عرف المجتمع طريد العدالة ونزيل السجون . . ولكن غريزة حب البقاء الكامنة فى أعماقه كانت تضج وتصطخب متمردة ثائرة ، فلم يجد مناصاً من تزوير هذه الوثيقة التى تعاونه على البقاء .

بيد أن القدر لم يرفق بالتعس المسكين ولم يمهله ، إذ سرعان ما افتضحت فعلته ، فراح رجال الشرطة يطاردونه و يتعقبون آثاره ، كأنهم كلاب الصيد ، حتى عثروا عليه وحاصروه فلا نجاة له .

وإذ رأى آلة العدالة الرهيبة هابطة عليه ، مكتسحة . . كل شيء فى طريقها ، وهى تدور على نفسها ، تئز وتهدر فى ثورة عارمة مجنونة عنيفة ، حتى لكأنها جرم هائل من أجرام السماء ، قد أفلت من نظام الجاذبية الذى يربطه بباقى الأجرام ، التاث عقله من فرط الرعب واليأس ، فقفز من شرفة المنزل الذى حوصر فيه ، وهوى إلى الأرض دون حراك .

لقد ذهب المنكود يستصرخ عدالة من فى السماء ، وينشد رحمته ، بعد أن أعوزته رحمة من فى الأرض ، وقضت عليه عدالتهم .

مسرحية رب البيت

قصة رب أسرة كامل

ولعل أصدق ما كتب جلزوردى عن سلطان العادات والتقاليد ، ومدى الصعوبة التى تعترض المرء عندما يحاول أن يروض نفسه على الأخذ بالجديد ، والقضاء على القديم الذى نشأ فى ظله ، وعاش فى كنفه حتى تأصلت جذوره بفعل الزمن قصته "A Family Man" وليس من السهل تعريب هذه التسمية ، ذلك لأنها غير مألوفة ولا هى مستعملة فى الشرق ، ولكن من سياق القصة يرى القارئ أن أصح ترجمة لهذه التسمية هى : « رب أسرة كامل » أو « سيد بيت » قياساً على التسمية الشائعة لدينا « ست بيت » التى تطلق على السيدة المختبرة المحنكة التى تعرف كيف تدير منزلها وتفرض عليه سلطانها ، إذ المعنى التهكمى الذى يرمى إليه الكاتب هو نفس المعنى الذى تستعمل فيه هذه التسمية الأخيرة مع اختلاف الجنس طبعاً ، ومع التوسع قليلا فى تحديد هذا السلطان .

* * *

مثلت هذه القصة بمسرح الكوميدى بلندن فى مايو عام ١٩٢١ أى عقب الحرب العالمية الأولى ، التى فاقت كل حرب سبقتها بما جاء فى أعقابها من نتائج خلقية وفكرية غاية فى الخطورة والتطرف قامت على أنقاض كثير من العادات والتقاليد التى استأصلتها الحرب أو كادت ،

وليس ثمة ناحية واحدة من نواحى الحياة لم يشملها هذا التغيير .

ولقد أصاب نظام الأسرة ، تبعاً لهذا ، تغيير كاد أن يكون انقلاباً تناول العلاقة التى تربط رب الأسرة بأفرادها ، فاتسعت آفاق الحرية التى تتمتع بها المرأة حتى بات من حق أية فتاة بلغت الحادية والعشرين مطلق الحرية فى تصرفاتها الشخصية دون أن يكون لوالديها أى حق فى التعرض لها أو إرغامها على العيش فى كنفهما ، مادام فى مقدورها أن تجد سبيلا مشروعاً للارتزاق .

* * *

عالج جلزوردى فى هذه القصة مشكلة اجتماعية من أدق المشاكل ، فكان موفقاً كل التوفيق فى الإحاطة بشتى أطرافها ، وكان موفقاً كل التوفيق فى دراستها دراسة عملية ، مسترشداً بتفكير هادئ متزن لا يشوبه تحيز أو محاباة ، ولا يحسده نفاق اجتماعى مما قد يجرف تياره غيره من الكتاب تحت ضغط الظروف أو تزلفاً إلى الرأى العام ، فلم يك جلزوردى ليرضخ لتقليد أو يبهره جديد أو يأبه لإغراء أو تهديد ، بل كان يكتب دائماً ما تمليه عليه عقيدته دون أن يخشى فى الحق لومة لائم .

* * *

بطل القصة رجل حالفه التوفيق فى حياته وفى عمله معا ، أو هويبدوكذلك يدير منزله كما يدير عمله فى حزم يستدر الإعجاب ، حتى باتت رغبته ، حيثما حل ، أمراً واجب النفاذ ، وحتى بات هو مضرباً للأمثال بين الأسر المحيطة به ، إذ كانت كل الظواهر تنبئ بأنه من الأزواج القلائل الذين تيسر لهم أن يوفقوا بين واجباتهم نحو الأسرة ، وما يتطلبه العمل الذى

يزاولونه من انهماك واستغراق .

هو فى عمله حازم إلى حد الصرامة ، لا تأخذه رحمة فيه أو هوادة ، ولا يكترث إلا لما يعود على هذا العمل بالنفع ، دون أن تفت فى إرادته الحديدية عاطفة طارئة أو نزوة عارضة .

وهو يعرف طريقه إلى الهدف الذى ينشده ، فيسير إليه قدماً لا يلوى على شيء ، والويل كل الويل لمن يعترض طريقه أو يضع فيه العقبات فهو لن يشفق عليه أو يرحمه إذا أزفت ساعة الحساب ، مهما طال الزمن وعز الانتظار ، لذلك أصبح اسمه محوطاً بهالة من الرهبة أو الجلال أو هما معاً ، ومن ثمة تسربل هذا الاسم بغلالة من الغموض الذى يضاعف هذا الجلال المهيب .

وهو إلى جانب هذا ممن يؤدون واجباتهم الدينية ، إن لم يكن على أكمل وجه ، فنى غير تقصير أو فتور ظاهر ، وبذلك جمع بين الدين والدنيا معاً ، وضمن الآخرة فى نظر الجميع كما ضمن الأولى واطمأن إليها .

سارت أعماله من نجاح إلى نجاح ، وأصبحت سيرته العاطرة حديث سكان المقاطعة التى يعيش فيها ، فعقدوا آمالهم عليه ، واتجهت أنظارهم إليه كالمرشح الوحيد لأن يخلف رئيس بلديتها ، حينما تنتهى مدة رئاسته القانونية .

وهو سعيد بحياته ، معتد بنفسه ومركزه ، مطمئن إلى مستقبله الباسم الذى يتراءى له متلألئاً من وراء الأفق ، وأنت ستلمس هذا حينما تقرأ ما كتبه رداً على رئيس البلدية الآنف الذكر عندما عرض عليه هذا الأخير ،

باسم البلدية أو مجلسها ، مركز الرئاسة لدى حلول موعد اختيار الرئيس الذى يتجدد كل عام ، فقد جاء هذا الرد كما يلى :

« سيدى الرئيس

إيماء إلى الحديث الذى دار صباح اليوم بيننا ، أرى أن أصارحكم بأننى كنت فى الواقع راغباً عن قبول الرئاسة ، عازماً على الاعتذار عن تحمل أعبائها ، لما تعلمونه عن المهام غير اليسيرة التى أضطلع بها ، لولا أننى بعد إمعان الفكر ، انتهيت إلى الرأى بأنه لزام علىّ أن أكرس النصيب الأكبر من وقتى للخدمة العامة .

وإنى وإن كنت أحس عجزى عن تحمل مسئوليات المنصب الضخمة ، وعدم استحقاقى للشرف الذى تفضلتم فأضفيتموه علىّ بهذا الاختيار ، لا يسعنى بحال إلا أن أستجيب لرغبة المجلس ورغبتكم ، لذلك أتشرف بأن أخطركم بالقبول » .

« توقيع »

* * *

هكذا جاء رد صاحبنا ، يفعمه عزوف الزاهدين وانصراف القانعين ، بينما هو من فرط طربه لهذا العرض الذى طالما سعى إلى تحقيقه ، يكاد أن يحس مثل ما كان يحسه الحسن بن وهب حينما كتب معبراً عن شكره وعرفانه للجميل قائلاً :

« من شكرك على درجة رفعته إليها ، أو ثروة أقدرته عليها ، فإن شكرى لك على مهجة أحييتها ، وحشاشة أبقيتها ، وأمل أمسكت به وقمت بين التلف وبينه ، فلكل نعمة من نعم الدنيا حد تنتهى إليه ،

ومدى يوقف عنده ، وغاية من الشكر يسمو إليها الطرف ، خلا هذه النعمة التى قد فاقت الوصف ، وأطالت الشكر وتجاوزت قدره ، وأتت من وراء كل غاية . . . فكيف يشكر الشاكر ، وأين يبلغ جهد المجتهد ؟!.. »

وراح الرجل الطامح يرقب تحقيق هذه الأمنية الجميلة الحبيبة إلى نفسه ، فى وثوق وفى اطمئنان ، فلم يك هناك ثمة عائق يحول دونها ، وهو من كلل غار المجد هامته ، واستحالت له الحياة كلها بسمة هانئة مشرقة على ثغر الوجود .

ولكن . . . ولكن أرأيت شجرة البلوط الضخمة المتشابكة الأغصان ، التى نخر السوس أصولها ، فلم تصمد لهبات الريح العاتية ، بل سقطت وكان سقوطها شنعاً ؟!

وهل رايت البناء الشاهق ، الذى راحت قمته تناطح السحاب ، بينما أخذت أساساته تميد ، إذ كانت قد أقيمت على صعيد من الرمال ، فانهار فجأة ، وكان انهياره مثار الألم والدهشة والرثاء ؟!

هكذا كان سقوط هذا الرجل المسكين ، رهيباً وعلى غير انتظار .

أجل ، لقد زلزلت الأرض زلزالها ، فمادت تحت قدميه ، وصبت السماء صواعقها على رأسه ، واحدة إثر أخرى ، حتى كاد أن يفقد عقله ، لولا ما كان يتمتع به دائماً من صلابة فى العزم ، وصبر على المكاره وفى الملمات وأضخم الأحداث ، وجلد يجرى من قلبه وروحه مجرى الدم والفكر والعاطفة جميعاً .

* * *

كانت أولى الصدمات التى وجهها القدر إلى هذا الرجل ، خروج

كبرى ابنتيه عن طاعته ، فهجرت منزله ، واستقلت فى معيشتها وسكناها ، ثم راحت تزاول هوايتها فى فن التصوير بعيداً عنه ، وهو الرجل المحافظ الذى يحرص على سمعته الأدبية حرصاً لا يقف عند حد ، وهو الذى يزعم ويفتخر بأن سلطانه الروحى قد شمل أفراد أسرته جميعاً ، والناس من ورائه يزعمون هذا ويغبطونه عليه ، لذلك كانت المفاجأة أليمة عندما أعلنت هذه الإبنة تمردها على هذا السلطان المطلق الجائر الذى كان يفرضه عليها .

لقد أحست الفتاة أن هوة عميقة من التباين فى العاطفة والتفكير والمشرب تفصلها عن والدها ، وأنه هيهات لمن كان مثله ، من رجال الأعمال ، الذين طمست الماديات على بصائرهم ونفوسهم ، وخبت جذوة العاطفة فى قلوبهم ، أن يستعيد حرارة التوثب العاطفى الجرئ ، فيقفز من فوق هذه الهوة السحيقة التى تقوم بينهما وتفصلهما ، كيما يصل إليها ويفهمها ، وهيهات أن ترضى هى أن تخمد بيدها جذوة هذه الحياة من قلبها ، حتى لا تحس إلا ما يحسه ، ولا تفكر إلا كما يفكر ، وهو كما تراه ، رجل أنانى جامد ، ليس فى مقدوره أن يفهم روح العصر الذى يعيش فيه ، ولا أن يستسيغ ما شمل الحياة ببلاده من ضروب التطور ، وما نالته المرأة من حرية ، واكتسبته من حقوق ، فهو عبد لتفكير متبلد تعوزه مرونة الفهم ؛ ويعود بصاحبه دائماً إلى الوراء . . . إلى الماضى ، الماضى البائد العتيق .

* * *

وها هى ذه ابنته الثانية ، وقد بلغت الحادية والعشرين من سنها ،

تحذو حذو شقيقتها ، فتعلنه بعزمها على تركه والاشتغال بالسينما ، فيحاول المسكين إقناعها بالعدول عن هذا العزم تارة باللين وتارة بالعنف ، ومرة بالإغراء والوعد ، وأخرى بالتهديد والوعيد ، ولكن دون جدوى ، إذ كانت هى الأخرى قد ضاقت ذرعاً كأختها باستبداد والدها وجموده .

ومن سياق الحوار الذى دار بين الاثنين ، والذى ننقله إليك فيما يلى ، يتيسر لك أن تكون لنفسك فكرة صحيحة عما يصح أن يكون دائماً سبباً للصراع الخالد ، الذى يقوم عادة بين القديم بتقاليده المتأصلة ، وعاداته الراسخة ، والجديد بما له من فتنة وجدة :

الحوار
بين الوالد وابنته الصغرى

الابنة : لقد وفقت إلى عمل أزاوله يا أبى .

الوالد : أرجو ألا تكون « حمى الفن » التى أصابت أختك قد انتقلت إليك عدواها .

الابنة : هذا يتوقف على رأيك فى الاشتغال بالسينما وما تنعت به هذا العمل .

الوالد : الاشتغال بالسينما ! أنت تمزحين دون شك ، ولست اليوم مستعداً للمزاح .

الابنة : ليس هذا مزاحاً ، فأنا جادة كل الجد .

الوالد : ما هذا الهراء إذن ؟ !

الابنة : إنى أعنى ما أقول . . . لقد وهبتنى الطبيعة وجهاً صالحاً للستار الفضى وقد . . .

الوالد : « مقاطعاً » وهبتك الطبيعة ماذا ؟ ! كُفِّى عن هذا الهذر ، فلم تعد لى طاقة على الاحتمال بعد الذى عانيته من تصرف شقيقتك الأخرق .

الابنة : أرجو ألا تعترض طريقى يا أبى ، فقد طالما تمنيت أن يحل اليوم الذى يتيسر لى فيه أن أجنى ثمرة كدى ، فلا أعيش عالة على أحد .

الوالد : عالة على أحد ! !

الابنة : نعم . . . والآن لن يتيسر لك أن تمنعنى فشروط الاتفاق التى انتهيت إليها ستجعلنى فى غنى عن أية معونة تأتى إلىّ من الخارج .

الوالد : (وهو يضبط عواطفه) أتعنين أن الأمر قد وصل إلى هذا الحد ؟

الابنة : أجل . . . ولقد وقعت العقد .

الوالد : (فى ألم وغضب) أى مأفون أشر قد زج بك يا ابنتى إلى هذا المأزق ، وقذف بك إلى هذا المزلق ؟ !

الابنة : لم أكن فى حاجة إلى نصيحة أحد أو إلى إغرائه . . . لقد كنت أسعى إلى هذا منذ عهد بعيد ، ولقد بلغت الحادية والعشرين أخيراً كما تعلم .

الوالد : الحادية والعشرين ! وجهاً صالحاً للستار الفضى ! يا إلهى ! اسمعى . . . لن أسمح إطلاقاً أن تزاول إحدى بناتى هذا العمل الفاضح . . الله وحده يعلم كم كلفنى تعليمكما ، أجل تعليمكما

أنت وأختك .

الابنة : لست جاحدة لهذا الجميل . . . ولكن ، ولكن محال أن أعيش بهذا المنزل .

الوالد : محال ! عجباً ! لمه ؟ لقد تمتعت هنا بكل رعاية .

الابنة : (فى جرأة وأسى) لا زلت أذكر ما قاسيناه مراراً ، أختى وأنا ، من جراء هذه الرعاية ، فليس فى مقدورنا أن ننسى أو نتناسى أنك كثيراً ما ألهبت ظهورنا بعصاك ، ولم تشأ أن تحرمنا من صفعاتك القاسية .

الوالد : (مأخوذاً) ولكن . . . لقد حدث هذا فى عهد طفولتكما البعيد !

الابنة : (فى تهكم مستور) أرجو ألا تكون راغباً فى أن تعيد الكرة الآن .

الوالد : (ساخطاً) خذى حذرك يا فتاة من عواقب طيشك وإثارتك لى ، فلم يبق فى قوس الصبر منزع بعد ما لاقيته من عناء فى أثناء زيارتى المنكودة لأختك صباح اليوم . . . عودى يا ابنتى إلى محجة الهدى ، وانبذى هذه الفكرة الصبيانية التافهة .

الابنة : (فى اتزان وإيمان) لقد طالما صرحت يا والدى أنه لا قيمة لرجل لا يشق طريقه فى الحياة مستقلاً عن الجميع ، ولقد ساوت قوانين البلاد أخيراً بين الجنسين ، لذلك بات من حقى بل من الواجب علىّ أن أشق طريقى فى الحياة بنفسى .

الوالد : (متمالكاً نفسه) لا تجنحى يا ابنتى إلى هذه الجهالة الضالة . . . قدرى مركزى الأدبى وكيف ستجنين علىّ ، كما جنت أختك ، بهذه التصرفات النابية الحمقاء .

الابنة : (فى عناد وإصرار) إنما الصواب فيما فعلته أختى ، وما أنا مقدمة عليه .

الوالد : (وقد فقد كل سلطان له على نفسه) لقد أثرت وحش التقاليد الكامن فى أعماقى ، وفى أعماق كل رجل يحترم رجولته ، وإذن فلا تلومن إلا نفسك على ما سأصبه على رأسك الصلدة من جام غضبى .

الابنة : (فى جرأة عجيبة) لا عجيب ، فها هى ذه قسمات وجهك تنطق بالوحشية البروسية الرهيبة ، ولكنى لن أعفيك من سماع صرخة الحق أطلقها الآن مدوية فى الفضاء . . . إنك يا والدى لا تحب إلا نفسك ، ولا تجد أية غضاضة فى أن تفرض إرادتك على كل المتصلين بك مهما كانت هذه الإرادة جائرة ، ومهما نالهم بسببها من شر ، إذ المدار كله على مقدار ما تجنيه أنت من نفع ؛ وبالرغم من الأقوال الكثيرة التى كنت لا تفتأ تصبها فى آذاننا عن النشأة الاستقلالية ، وعن الحياة المثالية التى تقوم على أساسها ، فهذه الحياة ، مع الأسف ، ليست فى نظرك سوى شركة مساهمة تستولى أنت وحدك على كل الأسهم فيها .

الوالد : (حانقاً) أيها الببغاء السليطة اللسان التى تهذى بما لا تعى ، وتهرف بما لا تعرف ؛ ليست الحياة المستقلة حقًّا بل اكتساباً ، ولا يكتسبها إلا من تحرره مواهبه من ربقة التواكل .

الابنة : فلم إذن تعترض السبيل الذى يجعلنى فى غنى عن الجميع ويحررنى ؟ !

الوالد : ليست لمثلك يا ابنتي هذه الحياة الشاقة ، حياة الجهاد والكفاح ... ثقي أنك لو جاذفت واندفعت مع تيارها ، فستبتلعك اللجة في عام واحد . . . لا تتطلعي إلى أختك فهي قد تجد ما تسد به رمقها عن طريق موهبتها الفنية ، أما أنت فليس لديك ما يمكنك استخدامه كوسيلة للارتزاق .

الابنة : باستثناء وجهي طبعاً فقد أكد الخبراء أنه صالح للستار الفضي .

الوالد : وجهك ! هذا هو أحبولة الشيطان التي تقذف بالمرأة دائماً إلى الدمار وبئس المصير .

الابنة : اطمئن ، فلن ألتمس معونتك إذا قدرت لي هذه النهاية .

الوالد : لا تضاعفي متاعبي ، ولا تزجي بي إلى مآزق جديدة لا مبرر لها . . . أنت الآن تتمتعين بقدر معقول من الحرية ، وستظلين كذلك حتى تتزوجي ، فلا تتعجلي الأمور .

الابنة : لشد ما يؤلمني أن أراك عاجزاً عن أن تفهمني أو تفهم هذا النزوع الجارف القوي الذي قد استولى على كل مشاعري .

الوالد : ولكن أي نزوع تعنين وإلام تنزعين ؟ !

الابنة : النزوع إلى حياة الكفاح . . . حياة الاستقلال الشخصي التي يحررها الجهاد في سبيل الرزق .

الوالد : (يائساً) لست أدري أي شيطان قد أوحى إليك هذه الترهات الملتاثة ! !

الابنة : إنها جرثومة الحرية التي تسبح في الفضاء ، والتي نستنشقها مع الهواء .

وألقت الابنة الصغرى عن كاهلها نير والدها المستبد ، وحررت نفسها من ربقة وحشيته البروسية ، على حد تعبيرها ؛ ثم خرجت إلى الفضاء الوسيع تنشد الحرية الجارفة التى جاءت فى أعقاب تلك الحرب المشئومة الغشوم .

بيد أن هذه الصرامة البروسية التى نفرت الابنة من أبيها وباعدت بينهما ، كانت قد استهوت خادمته الفرنسية واستولت على مشاعرها ، فراحت تحيك شباكها من حوله ، وتحيطه بسياج من غوايتها وفتنتها حتى أوقعته فى حبائلها ، منتهزة فرصة يأسه وإحساسه بالوحدة ، وإذ هو يطبع على ثغرها قبلته الأولى ، شاء سوء طالعه أن تلمحه زوجه ، فأحست بما فى هذا من إذلال لها ، فانفجرت عن ثورة نفسية عنيفة ظلت تكتمها أعواماً طويلة ، تحملت فى أثنائها من أنانية زوجها وإهماله لها ما لا طاقة لمخلوق على احتماله ، فشقت هى الأخرى عصا الطاعة عليه وعلى طغيانه ، ثم راحت تنشد مع ابنتيها ، بعيداً عنه وعن منزله ، حياة الحرية والانطلاق .

وهكذا ، فى لحظة خاطفة رأى الجبار صرح آماله الشاهق قد انهار فجأة ، فالسمعة الطيبة المستفيضة ، التى نالها «كرب أسرة كامل» والتى رشحته لرياسة البلدية ، باتت كالعصافة تذروها الريح ، لذلك خرج من منزله ، كمن به لوثة ، إلى حيث ذهبت زوجه مغضبة ، وقد نوى أن يعيدها إليه مهما كانت العقبات اتقاء للفضيحة الكبرى التى بدا له شبحها المفزع المخيف عن كثب ، ولكنها رفضت فى إصرار ، فليس ثمة ما يثير النفوس الكريمة قدر استبداد المستبدين ، وهذه المرأة الكريمة قد شربت كأس الظلم حتى الثمالة ، وقد أذكت الابنتان فى

نفس أمهما هذه النزعة الثائرة دون أن تشفقا على الطاغية الذى راح يهدر كحيوان جريح قد أطبقت عليه شباك الصائد ، فاستعنّ بشرطى للخلاص منه والحد من شرته ، فكانت طعنة فى صميم كرامته وكبريائه .

حينئذ انحسر القناع عن الوحش الكاسر الذى يسكن فى أعماقه ، وعصفت بعقله ثورة هائلة ، فراح يسب الجميع ويكيل لهم اللكمات ، ويحطم ما يعترض طريقه من تحف ورياش ، دون أن يكترث للقانون أو يأبه له ، فقد رأى أن مثل هذا القانون الذى يبيح لكائن من كان أن يتدخل متطفلاً بين رب الأسرة وأفراد أسرته ، والذى يحد من سلطانه عليهم ، إنما هو قانون فاسد لا يلزم المرء أن يرضخ له .

لهذا لم ينج رجل الشرطة من تعديه عليه ، إذ شاء أن يصب جام مقته لهذا القانون على ممثل هذا القانون .

وحينئذ كانت خاتمة المأساة إذ قبض عليه ، وزج به فى السجن .

وعلى الرغم من صدور أمر الإفراج عنه بعد ساعات ، وبالرغم من عودة أفراد أسرته إليه مشفقات آسفات ، فقد ذاع نبأ فضيحته ولاكته الألسن ، حتى بات من المتعذر عليه أن يسترد سمعته الأولى ، أو أن يرد إليه بعض اعتباره .

* * *

لقد أراد جلزورذى بهذه المسرحية الناجحة الهادفة ، أن يحمل فى عبارة لبقة ، على المحافظين لجمودهم ، وإصرارهم الأعمى على تسفيه كل ما هو حديث ؛ كما أراد أن يعيد أنصار الجديد إلى رشدهم ، إذا تطرفوا فى تمردهم على التقاليد ، والتا[illegible] ضد العادات القديمة مهما

كانت صلاحيتها وملاءمتها للظروف ، منكراً على الأولين ، أعنى المحافظين الجامدين ، تعصبهم الجاهل الضيق الأفق لكل ما هو عتيق قديم ، وناعياً على الآخرين تهليلهم الأرعن غير الحصيف لكل ما هو جديد ، إذ الرأى عنده أن التطور هو سنة الحياة ، أما الطفرة فضرب من الثورة ، والتعصب – فى أى صورة من الصور – إنما هو لون من ألوان الردة البغيضة الممقوتة .

مسرحية الأول والأخير

سأبدأ هذه المسرحية كما بدأها المؤلف ، مرجئاً أى تعليق أو تلخيص إلى حين ؛ فالمنظر فى اختصار هو حجرة المكتب بمنزل «كيث دارانت» المحامى ، والوقت هو إحدى أمسيات شهر نوفمبر . . . كيث جالس فى مقعد مريح وقد استولى عليه الكرى ، يبدو على وجهه الصلابة والعزم الشديد . . . يدخل شقيقه «لارى دارانت» متسللاً فى خطوات مترددة وهو على نقيض شقيقه ، إذ تكشف تقاطيع وجهه عن الخور وما خلفته حياته العابثة المستهترة من وهن وضعف . . . يستيقظ كيث على حركة شقيقه داخل الحجرة ، فيدور بينهما الحوار التالى :

كيث : من هناك ؟

لارى : (فى صوت مكتوم) لا أحد سواى . . . لارى .

كيث : (نصف مستيقظ) ادخل . . . كنت نائماً .

(لا يحول رأسه ، يبحلق فى النار ، والنوم لا زال يداعب جفونه ، يتنفس لارى بصوت مسموع ، وأخيراً يحول رأسه قليلاً نحو أخيه)

كيث : حسناً يا لارى . . . مادا هناك ؟

(يتقدم لارى صوب شقيقه متحسساً الحائط ، كما لو كان يستند إليه ، يتحرك بعيداً عن دائرة الضوء)

كيث : (وهو يتفرس فى أخيه) أمريض أنت ؟

لارى : (يظل فى موقفه دون حراك ، يتنفس الصعداء ، ولا ينبس ببنت شفة) .

كيث : (ينهض فى تثاقل وهو يحملق فى وجه أخيه) ماذا دهاك يا رجل ؟ (يتكلم فى حدة لما أصاب أعصابه من توتر شديد بسبب حال أخيه) هل ارتكبت جريمة قتل حتى تقف هكذا مشدوهاً فاغراً فاك كالأبله ؟ !

لارى : (هامساً) نعم يا كيث .

كيث : (فى تقزز شديد) يا إلهى ! مخمور كالعادة ! (فى صوت طغى عليه الخوف) لقد أخبرتك – لو لم تكن شقيق – ! اقترب حتى أراك ؛ ماذا دهاك يا لارى ؟

(يبتعد لارى فجأة عن الحائط ، ثم يلقى بنفسه متهالكاً إلى مقعد فى دائرة النور)

لارى : لقد ذكرت لك الحقيقة يا كيث .

(كيث يخطو نحو شقيقه فى لهفة فازعة ، ثم يحاول أن يستشف الحقيقة من نظرات لارى الزائغة الخائفة)

كيث : (فى غضب ودهشة يتكلم بصوت خافت) بربك ما هذا الهراء ؟ (يتوجه كيث نحو الباب ثم نحو النوافذ ليتحقق من أنها جميعاً مغلقة ، وليس هناك من يسترق السمع ، ثم يعود إلى شقيقه)

كيث : حاول يا لارى أن تتمالك نفسك ، وإياك والمبالغة فيما تقول ، ثم اذكر لى ماذا حدث بالضبط ،

لارى : (معترفاً ومؤكداً دون تحفظ) إنها الحقيقة . . . لقد قلت لك إننى قتلت رجلاً .

كيث : (يستعيد هدوءه ، ثم يتكلم فى برود) إهدأ !

(لارى يرفع يديه ويحركهما فى يأس شديد – يفزع كيث لما بدا على شقيقه من اليأس) .

كيث : (فى غضب وخوف واستياء) ولماذا حضرت إلى هنا ؟ ولماذا تعترف لى بأمر خطير كهذا ؟

لارى : (فى ألم وعتاب) لمن أفضى بسرى إذن ، إذا لم أفض به إليك ؟! لقد حضرت للاستفسار منك عما يجب أن أصنع . . . أأسلم نفسى لرجال الشرطة أم بماذا تنصحنى ؟

كيث : متى . . . متى . . . ماذا ؟ ! !

لارى : أمس مساء .

كيث : (مأخوذاً) يا إلهى ! كيف . . . أين . . . ؟ يحسن أن تفضى إلىّ بكل شىء . . . اشرب هذه القهوة أولاً ، حتى تجلو ذهنك .

(يصب كيث لأخيه فنجالاً من القهوة فيشربه الأخير فى سرعة عن آخره) .

لارى : (وهو يقص على شقيقه تفاصيل جريمته) لقد تعرفت إلى فتاة بولندية كان قد توفى والدها وهى فى سن السادسة عشرة ، وخلفها وحيدة ، فتلقفها وغد كان يقطن نفس المبنى الذى تعيش فيه ، وتزوجها أو ادعى هذا ، ثم هجرها وهى حامل ، ولكنها فقدت طفلها بعد أن أوشكت على الموت جوعاً ، فتلقفها

وغد آخر عاشت معه عامين ، حتى عاد الأول فظهر فى أفق حياتها من جديد ، وأرغمها على العودة للعيش معه ، وقد اعتاد أن يضربها ضرباً مبرحاً ، يترك آثار القسوة على جسمها ، وعندما تعرفتُ إليها كان قد هجرها للمرة الثانية ، وكانت قد انحرفت عن الطريق السوى : كل هذا ولم تكن المسكينة قد تخطت سن العشرين ، فتعلقت بى كما لو كنت قد هبطت عليها من السماء ، وأخلصت لى كل الإخلاص كما أخلصت لها ، واستقام حالها تماماً إذ نهجت المسلك السوى ، وعندما ذهبت إليها فى الليلة الماضية كان هذا الشيطان قد عثر عليها ثانية ، فما كاد يرانى وكان ضخم الجثة فظ الطباع كأنه الوحش الكاسر ، حتى هاجمنى وكال لى الضربات فى عنف وقسوة ، فأمسكت بخناقه وأنا لا أكاد أتمالك نفسى من فرط الغضب ، وعندما فككت قبضة يدى عن حنجرته . . .

(يصمت لارى وتسقط يداه فى يأس)

كيث : (يدعوه إلى الاستمرار) هيه . . . نعم ؟

لارى : (فى صوت مخنوق) مات . . . مات يا كيث . . . لم أكن أعلم أنها تعلقت بثقلها عليه كيما تساعدنى فى الخلاص منه وإلحاق الهزيمة به . . .

كيث : (فى صوت جاف أجش) وماذا صنعت حينذاك ؟

لارى : لقد جلسنا ، هى وأنا ، بجانب الجثة وقتاً طويلاً . . .

كيث : هيه . . . وماذا أيضاً ؟

لارى : بعد هذا حملت الجثة على ظهرى وخرجت بها إلى الشارع ، ثم تخلصت منها فى أحد المنحنيات .

كيث : على أى بعد من المنزل ؟

لارى : حوالى خمسين ياردة .

كيث : هل رآك أحد ؟

لارى : لا . . .

كيث : كم كانت الساعة آنذاك ؟

لارى : الثالثة صباحاً .

كيث : وماذا بعد هذا ؟

لارى : عدت إليها .

كيث : (فى استهجان) ولماذا بحق السماء ! ؟

لارى : (فى شبه اعتذار) كانت فزعة تعانى الوحدة . . . وكذلك كنت أنا أيضاً يا كيث !

كيث : أين المكان الذى تخلصت فيه من الجثة ، وأين تسكن هذه المرأة ؟

لارى : إنها تقطن بالمنزل رقم ٤٢ ميدان بورو بحى سوهو . وقد تركت الجثة عند ركن زقاق جلوف .

كيث : (مأخوذاً ولكن فى بعض الاستبشار) يا إلهى ! لقد قرأت تفاصيل هذه الجريمة بجرائد الصباح . . . ولقد كانوا يتحدثون عنها بالمحكمة هذا الصباح . . . لابد أنك قرأتها مثلى بالصحف ، ثم صور لك الوهم والخمر معاً أنك أنت الذى ارتكبتها .

لارى : (فى أسى) ليت الأمر كان كذلك يا كيث .

كيث : ولماذا جئت إلى هنا وأطلعتنى على هذا السر الرهيب بحق السماء . . . ألا تعلم أننى مرشح للعمل بالقضاء ؟ !

لارى : (فى غير التواء) نعم أعلم هذا . . . ولكنك الوحيد الذى يمكنك إرشادى إلى ما يجب علىّ عمله . . . لم أقصد قتله يا كيث . . . كنت أدافع عن الفتاة . . . إنى أحبها . . . ماذا أصنع ؟

كيث : (ساخراً) تحبها !

لارى : (منفعلاً حانقاً) زوجها الخنزير الوحش ! إن مليوناً من الناس يموتون كل يوم ، وليس بينهم من يستحق الموت مثله . . . ولكن بالرغم من هذا أحس ثقل الجريمة هنا (يشير إلى قلبه) . . . إنها تعصر هذا القلب عصراً يا كيث . . . بربك ساعدنى يا أخى . . . قد أكون من طغمة الضالين ، ولكنك تعلم أنى لم أؤذ فى حياتى ذبابة ما دام هذا فى طوقى . . . (يخفى وجهه بين يديه) .

كيث : تجلد يا لارى وكن ثابتاً ! دعنا نفكر فى مخرج من هذا المأزق . . . ألم تقل الآن إن أحداً لم يشاهدك وأنت تتخلص من جثة القتيل ؟

لارى : كان المكان منزوياً والليل حالكاً .

كيث : متى تركت الفتاة بعد عودتك إليها ؟

لارى : حوالى الساعة السابعة .

كيث : وإلى أين ذهبت ؟

لارى : عدت إلى المنزل

كيث : بشارع فتزروى ؟

لارى : نعم .
كيث : وما الذى صنعته منذ ذلك الحين ؟
لارى : لا شيء سوى التفكير فى مصيرى .
كيث : ألم تغادر المنزل قط بعد عودتك الأخيرة إليه ؟
لارى : لا . . .
كيث : ألم تخرج لرؤية الفتاة ؟ (لارى يهز رأسه بالنفى) .
كيث : أليس من المحتمل أن تكشف الفتاة سرك ؟
لارى : محال .
كيث : أو لا تصاب بالهستيريا فتعترف بالجريمة وتهذى بالتحدث عن نفسها وعنك ؟
لارى : لا . . .
كيث : من يعرف الصلة التى بينكما ؟
لارى : لا أحد .
كيث : هل رآك أحد تلج منزلها لدى زيارتك لها مساء أمس ؟
لارى : لا . . . فهى تسكن بالدور الأرضى ومعى مفاتيح لمسكنها .
كيث : (وهو يمد يده) هاتها
(يخرج لارى مفتاحين من أحد جيوب سترته ويسلمهما لشقيقه) .
لارى : (وهو يهم بالوقوف) لن أستطيع يا كيث أن أقطع علاقتى بها .
كيث : (فى ازدراء) إيه . . . فتاة كهذه ؟ !
لارى : (فى غضب) نعم . . . فتاة كهذه !
كيث : (مشيراً إليه بيده كيما يهدأ) ماذا تحمل أيضاً مما يكشف عن

علاقتك بها ؟

لارى : لا شيء .

كيث : وفى مسكنك . . . ألا يوجد شيء من هذا القبيل ؟

لارى : لا شيء .

كيث : صور؟ خطابات ؟

لارى : لا . . .

كيث : أواثق أنت مما تقول ؟

لارى : نعم .

كيث : وهل لم يلمحك أحد داخلاً منزلها لدى عودتك بعد تخلصك من الجثة ؟

لارى : (يهز رأسه علامة النفى) .

كيث : ولا عندما تركتها فى صباح اليوم التالى ؟ لا يمكن أن تتأكد من شيء كهذا . . .

لارى : (مؤكداً) . . . أنا متأكد أن أحداً لم يرنى .

كيث : (وقد انفرجت أساريره قليلاً) إنك إذن لسعيد الطالع . . . اجلس يا رجل . . . لا بد لى من التفكير فى الأمر . . .
(يجلس لارى ويروح كيث يعصر ذهنه) .

كيث : (كما لوكان يخاطب نفسه) هذا بشع !

لارى : (يتنهد فى أسى) أجل . . . هذا بشع دون شك !

كيث : هل كانت هذه هى المرة الأولى التى عاد فيها الزوج إلى الظهور بعد غيبته الثانية ؟

لارى : نعم .

كيث : كيف اهتدى إلى محل إقامتها ؟

لارى : لست أدرى .

كيث : هل كنت مخموراً عند ارتكاب الجريمة ؟

لارى : لا . . . لم أكن مخموراً . . . كنت قد شربت قليلاً جداً .

كيث : قلت إنك لم تقصد قتله . . . هل هذا صحيح ؟

لارى : (فى صدق) الله يعلم صدق ما قلت .

كيث : هذا أمر له اعتباره دون شك .

لارى : (موضحاً) لقد بدأنى بالعدوان . . . ولم أكن أدرى أنى قوى إلى هذا الحد .

كيث : لقد تعلقت الفتاة برقبته كما قلت . . . هذا سيء ولعله السبب الأول !

لارى : لقد فعلت هذا من أجلى . . . لقد أفزعها زوجها الوحش وتوهمت أنه سيقضى علىّ .

كيث : أتعنى أنها تحبك .

لارى : (فى بساطة) نعم يا كيث .

كيث : (دون مجاملة) أفى مقدور امرأة كهذه أن تحب ؟

لارى : (محتداً) إنك شيطان متحجر القلب . . . لم لا ؟

كيث : (دون اهتمام أو اكتراث لعواطف شقيقه) إنى أحاول الوصول إلى الحقيقة . . . إذا كنت تنوى معاونتى فى سبيل إنقاذك فلا بد أن أعرف كل شيء . . . ما الذى يجعلك تظن أنها شغوفة بك ؟

لاري : (فى ضحكة غيظ ملتاثة) لأنها . . . لأنها شديدة التعلق بى . يا سيادة المحامى الكبير !

كيث : (فى صلابة وجفاف) إنى أتكلم عن الحب ، عاطفة الحب !

لاري : (فى شراسة) وكذلك أنا . . . ألم تلتقط فى يوم ما كلباً من كلاب الطريق الضالة . . . ؟ ! لقد أحبتنى فى وفاء جم كما يحب الكلب الضال من يعثر عليه ويحسن إليه . . . فبادلتها حبًّا بحب ، إذ التقط كل منا الآخر لأنى كنت ضالاً مثلها . . . لقد كان فيها نجاتى من التشرد والقنوط .

كيث : (يهز أكتافه دون اكتراث ويغير مجرى الحديث) ما الذى جعلك تختار ذلك المنحنى الذى تركت فيه الجثة ؟

لاري : (مستعيداً بعض هدوئه) كان هو أول مكان مظلم صادفته .

كيث : هل كان يبدو على وجه القتيل علامات من كُتمت أنفاسه ومات مختنقاً ؟

لاري : (فى فزع) كفى !

كيث : (مصرًّا فى غير إشفاق) أجب .

(لاري يومئ برأسه بالإيجاب)

كيث : (مسترسلاً) هل جحظت عيناه وتشوهت سحنته كثيراً ؟

لاري : (فى استخذاء) نعم .

كيث : هل يسهل التعرف عليه بعد هذا التشويه ؟

لاري : (فى إعياء) لا أدرى .

كيث : عندما كانت هذه الفتاة تقيم مع القتيل لآخر مرة – أين كانا يقيمان ؟

لارى : فى بيمليكو على ما أظن .

كيث : ليس فى سوهو ؟

(يهز لارى رأسه بالنفى)

كيث : ما المدة التى قضتها الفتاة فى سوهو ؟

لارى : حوالى عام واحد .

كيث : وهى تعيش على هذا النهج ؟

لارى : إلى أن لاقتنى .

كيث : إلى أن لاقتك ؟ أو تعتقد ——— ؟

لارى : (مبحلقاً فى احتجاج واستنكار) كيث !

كيث : (وهو يسكته بإشارة من يده) ألم تغير هذا المسكن ؟

لارى : لا . . .

كيث : ماذا كان عمل القتيل ؟ بلطجى محترف ؟

(لارى يومئ برأسه بالإيجاب)

كيث : أظهر أنه يقضى معظم وقته خارج البلاد ؟

لارى : أظن ذلك .

كيث : أتعلم ما إذا كان معروفاً لرجال الشرطة ؟

لارى : لم يصل هذا إلى سمعى

(يذرع كيث الحجرة جيئة وذهاباً ثم يقف أمام مقعد لارى ويستأنف الكلام) .

كيث : والآن اصغ إلىّ يا لارى . . . عندما تغادر هذا المكان توجه رأساً إلى المنزل وامكث به حتى آذن لك بالخروج . . . أتعدنى بهذا ؟

لارى : أعدك .

كيث : ألوعدك أية قيمة ؟

لارى : (فى إحدى ومضات ذهنه) . . . ولما كان مخلخلاً كالهواء ، رجراجاً كالماء ، فقد كان فى طريقه صوب الفناء !

كيث : بالضبط . . . ولكن إذا كان لابد أن أعاونك ، فعليك أن تعمل وفق ما أشير به عليك ، ولابد أيضاً من بعض الوقت كيما أتدبر الأمر للانتهاء إلى حل ما . . . ألديك مال تصلح به من شأنك ؟

لارى : لدى منه القليل .

كيث : لا تهتم . . . سأدبر لك الأمر .

لارى : (فى انكسار) ما أشد طيبتك يا كيث . . . إنك شديد الحدب علىّ – الواقع أننى لا أدرى لهذا سبباً .

كيث : (ساخراً) هذه إحدى بركات علاقة الشقيق بشقيقه ، والواقع أننى لا أفكر الآن إلا فى نفسى وفى مصالح الأسرة ، فجريمة القتل التى ارتكبتها لن يلحقك وزرها فحسب ، بل فيها دمار الأسرة وبئس المصير . . . يا إلهى ! لقد جعلت منى شريكاً متستراً عليك فى هذه الجريمة ! أنا . . . أنا الذى أقسمت على احترام القانون وخدمة العدالة ، والذى سأكون فى كرسى القضاء هذا العام أو الذى يليه ، فأفصل فى مثل قضيتك هذه ! وحق السماء لقد أسرفت يا لارى فى استغلال علاقتك بى .

لارى : (وقد أخرج من جيبه صندوقاً صغيراً) كان الأفضل لى لو أننى

حسمت الأمر دون تردد .

كيث : (منزعجاً) أيها الأبله ! سلمنى هذا الصندوق !

لارى : (فى ابتسامة غريبة باهتة) لا . . . (يتناول من الصندوق حبة بين الإبهام والسبابة) أى سحر يا كيث ! واحدة فقط — وليفعلوا بك ما يشاءون فلن تدرى من الأمر شيئاً . . . هذا يجعلك تهزأ بكل ألوان التعذيب . . . يا للراحة العظمى التى تضفيها . . . أتريد واحدة تحتفظ بها للطوارئ ؟

كيث : (فى تودد) كن حصيفاً يا لارى . . . سلمنى هذا الصندوق .

لارى : (يعيد الصندوق إلى جيبه) هذا غير ميسور . . . إنك لم تقتل إنساناً قط (يطلق ضحكة ملتاثة) لقد صادفنى الحظ مرة فى نابولى إذ كدت أقتل سائق عربة راح يضرب حصانه فى قسوة . . . أما هذه المرة . . . يا إلهى ! (يغطى وجهه بيديه — يتوجه كيث إليه ويضع يده على كتفه فى رفق) .

كيث : تشجع يا لارى !

(لارى يتطلع إلى شقيقه)

لارى : حسناً يا كيث . . . سأحاول .

كيث : لا تبرح المنزل . . . كف عن الشراب . . . لا تثرثر . . . وأخيراً تحامل على نفسك واستعد هدوءك .

لارى : (فى طريقه إلى الباب) لا تدعنى أنتظرك أكثر مما تستدعى الظروف .

كيث : لا . . . اطمئن . . . فقط يجب أن تعتصم بالشجاعة !

(يخرج لارى متخاذلاً بادى القنوط) .

كيث : (يخاطب نفسه) يعتصم بالشجاعة ! يا إلهى ! إنما أنا الذى تعوزنى هذه الشجاعة !

يسدل الستار على هذا المنظر ، فإذا ما كان مساء اليوم التالى فى الساعة الحادية عشرة ، اتجه كيث إلى محل إقامة (واندا) صديقة لارى وزوج القتيل ، فى سوهو ، حيث يجدها بمفردها فى حالة انزعاج شديد ، فيطرق عليها الباب ولكنها لا تفتحه من فرط خوفها ، وحينئذ يستخدم كيث المفاتيح التى سبق أن سلمها له شقيقه لارى ، ثم يلج الحجرة التى كانت واندا فيها ، فتتوهم أنه لارى أتى إليها كمألوف عادته ، وتروح تناديه وقد سرى عنها ، ولكنها ما تكاد تسمع صوت كيث حتى يستولى عليها الفزع ، وأخيراً تطمئن عندما يخبرها أنه شقيقه وأنه قد حضر كيما يجد بمساعدتها وسيلة لإنقاذه من الورطة التى تردّى فيها ، ومن ثمة يدور بينهما الحوار على النحو التالى :

كيث : لقد أفضى إلىّ لارى بكل شىء .

واندا : (وقد شبكت يديها حول ركبتيها) نعم ؟

كيث : أمر شنيع !

واندا : نعم . . . شنيع . . . أمر شنيع !

كيث : (متطلعاً حواليه) فى هذه الحجرة ؟

واندا : حيث أنت واقف تماماً . . . كأنى أراه الآن وهو يسقط على الأرض .

كيث : (متأثراً برنة القنوط الرقيقة فى صوتها) يبدو أنك صغيرة السن

جداً . . . ما اسمك .

واندا : واندا .

كيث : هل أنت شغوفة حقاً بلارى .

واندا : إني على استعداد لأن أضحى بنفسى فى سبيله .

(فترة قصيرة من الصمت)

كيث : لقد حضرت لأرى ماذا تستطيعين عمله فى سبيل إنقاذه .

واندا : لا تحاول خداعى . . . هل أنت شقيقه حقاً ؟

كيث : أقسم لك على هذا .

(ثم يأخذ كيث فى استجواب واندا بطريقته القانونية البارعة إلى أن يطمئن تماماً أنها قد أعدمت كل ما من شأنه أن يكشف عن علاقتها بشقيقه) .

كيث : هل تعلمين أين يسكن لارى ؟

واندا : نعم .

كيث : عليك إذن ألا تذهبي إليه ، وعليه هو الآخر ألا يأتى هنا لرؤيتك .

(تطأطئ رأسها ولكنها تقترب منه فجأة)

واندا : أستحلفك بالله ألا تحرمنى منه . . . إنه أملى فى الوجود !

(تأخذ يده بغتة وتقبلها ، ولكنه ينزعها منها فى امتعاض ويروح يساومها على الابتعاد عن شقيقه وهو يغريها بمبلغ كبير من المال كيما تقطع علاقتها به نهائياً ، ولكن المسكينة تنحنى على قدمه تريد تقبيلها كيما يسمح لها بالعيش معه ، إذ لا حياة لها بدونه على حد تأكيدها وحينئذ يسمعان طرقاً خفيفاً يعقبه صفير معين

ينبئ عن مجيء لارى فتندفع واندا نحو الباب فى لهفة كيما تفتحه له وتعود به إلى حيث تركت كيث)

لارى : (يفاجأ بوجود كيث) . . . كيث !

كيث : (فى صرامة) أهذا هو مدى احترامك للوعد الذى قطعته على نفسك ؟

لارى : لقد انتظرتك طوال اليوم ولم أستطع الانتظار إلى ما شاء الله !

كيث : (فى تهكم) بالضبط !

(ويطلب كيث من شقيقه أن يستعد بعد غد للسفر إلى الأرجنتين ، مؤكداً له أنه سيعمل على أن تلحقه واندا عقب سفره فوراً ، وفى أثناء الحديث يذكر كيث أن رجال الشرطة – لحسن حظ لارى – قد قبضوا على متشرد بتهمة القتل إذ عثروا معه على خاتم كان فى أصبع القتيل ، وكان كيث يتوقع أن يقابل شقيقه هذا النبأ بالسرور ، ولكنه وجم لدى سماعه ، وأصر على ألا يغادر البلاد حتى يطمئن إلى أن هذا المتشرد المنكود الحظ لن يؤخذ بجريرته ، ومن ثم فقد رفض أن يستلم المبلغ الكبير الذى أعده كيث لترحيله خارج البلاد ، فلم يجد الأخير محيصاً عن تركه مع واندا بعد أن جعله يقسم على ألا يتخذ أية خطوة فى هذا الشأن إلا بعد الرجوع إليه والاسترشاد برأيه) .

(بعد خروج كيث)

لارى : رجل برئ يؤخذ بجريرتى ! . . . محال !

واندا : ولكنك أنت الآخر برئ . . . هل كنا نبغى قتله . . . أبداً . . . وإذن فلننس !

لارى : (فى أسى مكتوم) أجل فلننس ونهنأ ولنكن أقوياء مثل كيث !
(ولكن لارى يبدو أبعد ما يكون عن السعادة والنسيان)

واندا : سنكون سعداء معاً يا لارى .

لارى : (ينظر إليها فى حنان) أيها الطفلة المسكينة . . . عندما يحين الحين سنموت معاً !

واندا : (فى بساطة وصدق) بلى . . . إذا أصابك مكروه فلن أستطيع الحياة من بعدك !

(يسدل الستار وبعد شهرين من تاريخ هذا المنظر ، قبيل الغروب من أحد أيام يناير ، تتطلع واندا من نافذة غرفتها المطلة على أشجار الشتاء العارية ، وقد راح أحد باعة الصحف ينادى بصوت مرتفع معلناً عن إصدار قرار المحلفين فى جريمة المشرد الذى قبض عليه متهماً بقتل زوجها . . . تهم واندا باستدعاء بائع الصحف ولكنها لا تفعل بل تغلق النافذة ثم تخف إلى باب المنزل وتفتحه فتفاجأ بكيث مقبلاً فتعود أدراجها وهو يتبعها إلى داخل الحجرة) .

كيث : أين لارى ؟

واندا : توجه لحضور المحاكمة . . . لم أستطع منعه . . . ماذا تم فيها يا سيدى ؟

كيث : أدين . . . صدر الحكم بالإعدام . . . أغبياء ! بلهاء !

واندا : بالإعدام ! (تبدو كما لو كان سيغمى عليها) .

كيث : أيتها الفتاة . . . قد يتوقف الأمر كله عليك . . . ألا يزال لارى يعيش معك هنا ؟

واندا : نعم .

كيث : لابد لى من انتظاره .

واندا : ألا تتفضل بالجلوس .

كيث : (يهز رأسه ويسترسل فى الحديث) هل أنت مستعدة للسفر فى أى وقت ؟

واندا : نعم ، نعم . . إنى دائماً مستعدة .

كيث : وهو ؟

واندا : نعم . . ولكن الآن – ماذا سيفعل هذا الرجل المسكين !

كيث : (فى استهجان) أتقصدين هذا الغول سارق الموتى ؟

واندا : (فى عطف) لقد كان المسكين يتضور جوعاً . . أنا نفسى عانيت من الجوع طويلا . . وان الإنسان ليفعل حينذاك ما لا يريد أو ينوى فعله قط . . لقد كان لارى دائم الاكتئاب من أجله طوال هذه المدة . . ماذا يمكن عمله إذن ؟ !

كيث : اصغى إلىّ . . عاونينى . . لا تدعى لارى يغيب عن ناظرك . . . أنا واثق أنه لن ينفذ حكم الإعدام فى هذا المشرد التعس . . . (يقبض على ذراعها) . . والآن يجب أن نمنع لارى من الاعتراف بجرمه . . إنه أحمق ولا يبعد أن يفعل هذا . . أتفهمين ؟

واندا : نعم . . ولكن لماذا لم يأت حتى الآن . . يا إلهى ! لشد ما أخشى –

كيث : (مقاطعاً) لا . . . أعتقد تماماً أنه لابد سيراك قبل أن يتخذ أية خطوة بهذا الخصوص

(يسمعان مفتاحاً يوضع بقفل الباب . . يدخل لارى حاملا باقة كبيرة أنيقة من أزهار الزنبق والنرجس دون أن يكشف وجهه عن أية انفعالات إذ يبدو طبيعياً) .

لارى : كيث ! وإذن فقد رأيت مأساة هذا التعس ؟

كيث : نعم ولكن ثق أنى سأنقذه . . فقط يجب أن تعطيني الوقت الكافى يا لارى .

لارى : (فى هدوء) لازلت تحرص على سمعتك يا كيث ؟

كيث : ظن كما تشاء . . كل ما يهمنى أن تقسم لى أنك لن تسلم نفسك دون علمى .

لارى : (فى صدق) أقسم لك يا كيث

(يخرج كيث بينما يلقى لارى عليه نظرة مليئة بالمعانى وتداعب شفتيه ظل ابتسامة هادئة ولكنها غريبة)

واندا : (وهى تلاصقه فى حنان متسائل) ماذا تعنى ؟

لارى : (متغافلا سؤالها) العشاء يا صغيرتى - لم أذق الطعام أو الشراب طوال النهار . . ضعى هذه الزنابق فى الماء .

(تتناول واندا الزنابق وتضعها فى زهرية إطاعة لأمره . . يصب بعض الخمر فى كأس كبيرة ويشربها دفعة واحدة)

لارى : أطيب أيام حياتى قضيتها معك هذين الشهرين يا واندا !

واندا : (فى يأس) أواه يا لارى . . عدنى يا لارى أن أذهب معك حيثما تذهب . . أتظن أننى لم أفطن إلى ما تنوى عمله ؟ . . لا تستطيع أن تخفى عنى شيئاً . . سنذهب معاً . . معاً يا لارى ! فى النور

الساطع أو الظلام الدامس . . ولكن ألا يمكن –

لارى : لا يا واندا . . لا يمكن أن أنكص ولكن مادمت تشائين فسنذهب معاً .

واندا : لشد ما أخشى سكرات الموت يا لارى . . هل سنتألم كثيراً ؟

لارى : (فى صوت مختنق) لا ألم يا صغيرتى .

واندا : (وهى تتنهد) نضيع شبابنا . . ياللخسارة !

لارى : لو أنك شاهدت عذاب المسكين المنكود الحظ لما ترددت . . ولكننا سننأى عن هذا كله . . (وقد صعدت الخمر إلى رأسه) . . سنذهب إلى الظلمة ونحن طلقاء متحررون . . أجل ، متحررون من صغائر البشر الملعونة . . لشد ما أبغض هذا العالم ! أمقته ! أمقت ما فيه من وحشية كافرة ، ومن خيلاء واستغراق فى لذائذ الحياة ! . . عالم كيث بما فيه من صلاح مزعوم وصرامة وتوفيق ! ولذلك فنحن ، أنت وأنا ، لا نصلح لهذا العالم – إذ ألقى بنا فيه عند مولدنا وقد أعوزتنا الصلابة وقوة العزيمة ، ولذلك حق علينا الموت . . لا تخف يا كيث فإن ما أقوله الآن لن يسمعه أحد قط ! (يملأ الكأسين خمراً ويقدم إحداهما لواندا ويحتفظ بالأخرى لنفسه) . . اشربيها يا واند حتى الثمالة !

(تطيعه فى الحال ويشربان معا)

لارى : يا إلهى ! يعلق من رقبته حتى يموت ، لجرم أنا الذى ارتكبته ! (يعب لارى الخمر عباً ثم يتناول العشاء هو وعشيقته بعد أن يحرر خطاباً يعترف فيه بجريمته ويطلب أن يدفن هو وهى معاً ، وأخيراً

يخرج الصندوق الصغير من جيبه ويتحسسه ثم يتناول منه أربع حبات لا نتحارهما . . يعود كيث ليجد الاثنين جثتين هامدتين)

كيث : (وقد استوثق من وفاتهما) . . يا إلهى !

(يلمح ورقة قد شبكت بدبوس فى مكان ظاهر من الفراش . . يتناولها فى لهفة ويقرأ منها بصوت مرتفع ما يلى : « أنا لورنس دارانت على وشك أن أنتحر بمحض إرادتى أعترف أننى – » . . . يواصل القراءة فى سره وقد بدا عليه الفزع . . . ينتهى من القراءة . . . يدع الورقة فتسقط منه على الأرض . . يجلس متهالكاً على أقرب مقعد منه . . وبغتة يقول : « لو أنى تركت هذا الاعتراف هنا فإن اسمى ، ومستقبلى بأكمله ! . . . » وأخيراً وبعد صراع مع نفسه يتناول اعتراف شقيقه ويمزقه وهو يقول : « إن فى هذا الاعتراف لقضاء علىّ – لا ، فليشنق ! فليشنق ! » . . . ويسدل الستار وتختم المسرحية الصغيرة . . .)

ويبدو أن هذه المسرحية الصغيرة لم تكن سوى تجربة بدائية فى مستهل حياة الكاتب الكبير الأدبية ، ولذلك جاءت الفكرة فيها حائرة غير واضحة المعالم ، تتعارض إلى حد غير قليل مع مبادئه ورسالته الأخلاقية التى ظل طوال حياته يبشر بها ويدعو إليها . . فالانتحار رذيلة دون شك إذ هو يكشف عن همة ضعيفة خائرة ووهن أخلاقى شديد وكفر برحمة الله جل وعلا ، ولكن جلزورذى قد انزلق فى هذه المسرحية حتى بدا كما لو كان يدعو إلى الانتحار كوسيلة للتخلص مما فى هذا العالم من مساوئ وشرور ،

وهذه دعوة منحلة خطيرة إذ فيها تثبيط للعزم وتوهين للإقدام والعمل المثمر الكريم .

بيد أنه قد يهوّن من مسئولية الكاتب فى هذا الشأن ، أن هذه المسرحية من بواكير إنتاجه ، فلم يكن قد استبان تماماً حدود الحق والباطل كما لم تكن قد اتضحت فى ذهنه خطوط رسالته الأخلاقية ، وبالرغم من هذا فقد تألقت بها ، بين الفينة والفينة ، ومضات إنسانية مشرقة ، فاعتراض لارى على العالم الذى يؤمن به شقيقه كيث –كما جاء فى سياق الحوار– إنما هو تصغير لشأن المال الذى يستعبد صاحبه ، وبذلك يصبح وبالا على المجتمع والإنسانية معاً ، وتحقير للأنانية التى تدفع صاحبها إلى أن يشق طريقه فى الحياة على أشلاء أولئك المنكودين الذين جانبهم الحظ وتخطاهم التوفيق ، ونداء مدوى للناس يهتف بهم كيما يقيموا المحبة بينهم مقام القانون .

ولقد رأيت لزاماً علىّ أن ألخص هذه المسرحية حتى أعطى فكرة كاملة عن الكاتب الكبير فى حالى إشراقه وأفوله ، وتوفيقه وإخفاقه سواء بسواء ، حتى أبيّن أدوار تطور الرسالة فى ذهن الكاتب ، هذه الرسالة الأخلاقية التى آمن بها وراح يدعو إليها فى لجاجة وإلحاف وإلحاح : رسالة المحبة والتسامح وإنكار الذات .

على أن هذه المسرحية ، كما هو واضح من سياقها ، لم تخل من أسس هذه الرسالة العظيمة ، فهى واضحة المعالم بها ، ولم يبدُ النقص إلا فى طريقة معالجة الكاتب لهذه الرسالة وفى الوسيلة التى لجأ إليها لتوضيحها وتدعيمها فى ذهن المتفرجين والقراء جميعاً ، وكذلك فى اختيار أشخاص

المسرحية الذين يرمزون إلى المبادئ التى يستهدف الدعوة إليها ، فلم يكن الكاتب موفقاً فى اختياره لشخصية لارى الخائر الهمة المثبط العزم كيما يمثل شخصية البطل الإنسانى الذى ينبرى للدفاع – بشقشقة اللسان فحسب – عن المنكودين البائسين الذين غبنهم المجتمع الجائر فباتوا من المنبوذين والمنبوذات والمشردين والمشردات وراحوا يضربون فى فيافى الأرض على غير هدى دون ذنب جنوه أو جرم ارتكبوه ، اللهم إلا إذا كان الفقر ذنباً لا يغتفر وجرماً لا محيص لصاحبه عن أن ينكل به تنكيلا ، وأن يعاقب على فقره وحرمانه بأشد ألوان العذاب والهوان .

مسرحية الهزيمة

لم يقصر جلزورذى كتابته على القصة الطويلة ، مثل قصة أسرة فورسايت البطولية »
"The Forsyte Saga" التى أربت على الألف صفحة ، ولا على المسرحيات المتعددة المناظر والفصول ، مثل عشرات المسرحيات التى سبق ذكرها ، ولكنه كتب أيضاً التمثيليات ذات الفصل الواحد ، التى يدور فيها الحوار ، طوال هذا الفصل ، على شخصين اثنين لا ثالث لهما ، يعالجان من خلالها قضية هامة من قضايا الفكر ، فى تعمق خال من الجفاف ، وفى رصانة بعيدة عن التزمت ، وفى متعة مبرأة من كل ضروب الضحالة والفجاجة والخواء ، ولعل تمثيلية « الهزيمة » التى وضعها جلزورذى فى أعقاب الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨) أفضل مثال لهذا الضرب من الإنتاج المسرحى المركز ، الذى لم يعالجه غيره من الكتاب المسرحيين ، إلا بعد وفاته بوقت غير قليل .

ويدور الحوار ، فى هذه التمثيلية القصيرة ، بين ضابط شاب عاد من ميدان القتال ، بعد إصابته بجرح شديد ، استلزم نقله إلى العاصمة ، للعلاج بأحد مستشفيات لندن ، ولقضاء فترة النقاهة مع أسرته ، وبين فتاة ألمانية فقدت والديها وأشقاءها فى هذه الحرب ، فنجت بنفسها من بلدها حيث يدور رحى القتال ، إلى لندن تلتمس العيش الكريم ،

فعانت فى سبيل ذلك الأمرين ، وهى الآن تشعر بالضياع وسط مجتمع ملىء بالمرارة والحقد ضد شعبها الذى زج بالعالم إلى أتون هذه الحرب الضروس .

الحوار

الضابط : هيه ! . . ماذا بك ؟ . . لقد كنت تبكين حين لاقيتك .

الفتاة : (وقد تمالكت نفسها) أوه ! . . لا شيء . . إنه تأثير المساء الجميل . . هذا كل ما فى الأمر .

الضابط : (شاخصاً إليها ببصره) لا تبتئسى !

الفتاة : (تخلع قبعتها وخمارها – شعرها مجعد يميل لونه إلى الاصفرار) لا أبتئس ! إنك لا تعانى من الوحدة مثلى .

الضابط : (يتجه نحو النافذه وهو يعرج فى سيره ثم يقول فى تردد) ولكن . . كيف . . كيف ترديت إلى هذا الحد ؟ . . ألا تتسم هذه الحياة التى تعيشينها بالقنوط ؟

الفتاة : نعم ، هى كذلك . . هل أصبت بالميدان ؟

الضابط : لقد غادرت المستشفى اليوم فقط .

الفتاة : يا للحرب البشعة ! . . إنها سبب كل فجيعة . . متى ستنتهى ؟

الضابط : (يتفرس فيها وهو متكئ على النافذة) على فكرة . . ما هى جنسيتك ؟

الفتاة : (تلقى عليه نظرة خاطفة ثم تجيبه فى لكنتها الأجنبية) روسية

الضابط : حقاً ! . . لم أقابل فتاة روسية من قبل .
(تلقى عليه الفتاة نظرة خاطفة أخرى) أخبريني ، هل ساءت الحال إلى الحد الذى يصورونه ؟

الفتاة : (مراوغة) الأمر يتغير حين أحظى بصحبة شاب لطيف مثلك ، ولكنى لم أكن حسنة الحظ (تبتسم ، وهى فى ابتسامها ، كما هى فى حديثها ، متريثة ، سمحة ، خالية من الالتواء) لقد توقفت عن السير وعرّجت علىّ إذ رأيتنى حزينة ، أما الآخرون فلا يهتمون بى إلا حين أكون مرحة مبتهجة . . لست شغوفة على الإطلاق بالرجال . . إنك تمجهم حين تعرفهم .

الضابط : أكبر الظن أنك لم تعرفيهم حين يحزب الأمر ، فيبدون فى أكمل صورة . . ولا يتيسر لك هذا إلا إذا شاهدتهم فى الخنادق . . وحق السماء ! . . إنهم عندئذ يبدون جميعاً - ضباطاً وجنوداً - فى أروع صورة . . صورة باهرة صادقة للتضحية وإنكار الذات .

الفتاة : (تحدق فيه بعينيها الزرقاوين الرماديتين) أعتقد أنك لم تكن فى المؤخرة حين جد الجد ، بل إنك لترى فيهم بعض عناصر تكوينك .

الضابط : أوه ، ليس الأمر كذلك على الإطلاق . . لقد جافاك الصواب ! . . أؤكد لك أننا حين قمنا بالهجوم ، الذى

جرحت خلاله ، لم يكن ثمة فرد واحد بفرقتى إلا وقد أثبت أنه من الأبطال حقاً . . إن الطريقة التى عمدوا إليها – غير مبالين قط بسلامة أنفسهم – كانت رائعة !

الفتاة : (فى صوت غريب) لعل الموقف كان مماثلا أيضاً لدى – الأعداء

الضابط : أوه ، نعم ! أعرف ذلك .

الفتاة : آه ! . . لست رجلا خسيساً . . لشد ما أكره الأخساء !

الضابط : أوه ! الواقع أنهم ليسوا أخساء . . إنهم فقط لا يدركون .

الفتاة : أوه ! أنت طفل – طفل طيب – ألست كذلك ؟

(يتجهم الضابط الشاب ويعبس لعدم رضائه عن هذا النعت – يبدو الانزعاج على وجه الفتاة)

الفتاة : (فى تشبث بفكرتها) ولكنى أحبك من أجل ذلك . . إنه لمن الحسن التعرف إلى شاب لطيف مثلك .

الشاب : (فجأة) بخصوص شعورك بالوحدة – أليس لك أى أصدقاء روس ؟

الفتاة : (مشدوهة) روس ؟ لا (فى عجلة) لندن فسيحة الأرجاء . . هل كنت بالحفلة الموسيقية قبل أن تخاطبنى ؟

الضابط : نعم

الفتاة : وأنا أيضاً . . إنى أحب الموسيقى .

الضابط : أظن أن جميع الروسيين يحبون الموسيقى .

الفتاة : (وهى تلقى عليه نظرة أخرى خاطفة) إنى أذهب هناك دائما

عندما يتوفر لدىّ المال .

الضابط : عجباً ! . . هل تعانين من الضيق المالى إلى هذا الحد ؟

الفتاة : حسناً إن كل ما أمتلكه الآن شلن واحد .

(تضحك فى مرارة – ضحكها يضايقه – يجلس على قاعدة النافذة ، ويميل إلى الأمام صوبها) .

الضابط : هيه . . ما اسمك ؟

الفتاة : ماى . . حسناً ، هكذا أسمى نفسى . . لا جدوى من الاستفسار عن اسمك .

الضابط : (ضاحكا) إنك فتاة شديدة الارتياب بالناس . . ألست كذلك ؟

الفتاة : ألا ترى أن لدى ما يبرر ذلك ؟

الضابط : نعم ، أعتقد أنك حرية بأن تتوهمى أننا جميعاً وحوش .

الفتاة : (تجلس فوق مقعد ملاصق للنافذة حيث تقع أشعة القمر الفضية على خد مغطى بالمساحيق) حسناً ، لدى عدة أسباب تجعلنى خائفة فى كل وقت . . بل إنى الآن شديدة الهلع ، إذ لا أثق بأى إنسان . . أظن أنك قتلت الكثيرين من الألمان ؟

الضباط : لا يتيسر لنا أبداً أن نعرف ذلك إلا إذا التحمنا بالعدو وقاتلناه وجهاً لوجه ، وهذا الضرب من القتال لم أصادفه بعد .

الفتاة : ولكنك كنت ستسر كثيراً لو أنك قتلت بعضهم .

الضابط : أوه ! . . أسر ؟ لا أظن ذلك ، فنحن جميعاً ، بهذا الصدد ، فى زورق واحد . . نحن لا نسر بأن يقتل أحدنا الآخر – أو

هذا ما يراه السواد الأعظم منا . . إننا نؤدى وظيفتنا ، هذا كل ما فى الأمر .

الفتاة : أوه ، هذا مرعب ! . . أظن أن أشقائى قد قتلوا جميعاً .

الضابط : ألا تصلك أية أنباء ؟

الفتاة : أنباء ؟ لا ، بالتأكيد ، لا أنباء عن أى إنسان فى بلادى ، لعلى الآن بلا وطن ، فقد فقدت جميع من كنت أعرفهم : أبى وأمى وأشقائى وشقيقاتى ، لن أراهم قط طوال حياتى ، حين تنشب الحروب تتقطع نيــاط القلوب (تصدر صوتاً يكشف عن غضبها) أتعرف فيما كنت أفكر حين عرّجت علىّ ؟ . . كنت أفكر فى مسقط رأسى ، والنهر فى أشعة القمر . . لو أنى رأيته مرة أخــرى لابتهجت . . هل شعرت يوماً ما بالحنين نحو الوطن ؟

الضابط : نعم ، ساورنى هذا الحنين – فى الخنادق . . ولكن المرء ليشعر بالخجل – مع الآخرين جميعاً .

الفتاة : آه ! نعم ، نعم ! فجميعكم رفاق هناك ، ولكن ما رأيك فيمن هى مثلى هنا ، حيث يبغضنى ويحتقرنى الجميع ، وقد يقبضون علىّ ويقذفون بى إلى السجن .

(يعلو صدرها ويهبط)

الضابط : (يميل إلى الأمام ويربت بيده على ركبتها) آسف . . آسف .

الفتاة : (فى صوت مختنق) إنك أول من ترفقوا بى منذ عهد بعيد ! . . سأفضى إليك بالحقيقة . . أنا لست روسية . . أنا ألمانية !

الضابط : (مبحلقاً) يا فتاتى العزيزة ، من الذى يهتم بذلك ؟ . . إننا لا نقاتل النساء .

الفتاة : (تنعم النظر إليه) رجل آخر قال لى ذلك يوماً ما ، ولكنه كان يفكر فى متعته ، أما أنت فشاب لطيف جداً ، ولشد ما أنا سعيدة بلقائك ، فأنت ترى الجانب الطيب من الناس . . أليس كذلك ؟ . . هذا أول شيء فى العالم ، ذلك لأنه فى الواقع ليس ثمة خير كثير فى الناس ، كما تعلم .

الضابط : (مبتسماً) لشد ما أنت متشككة ساخرة ، أجل إنك كذلك دون شك !

الفتاة : متشككة ساخرة ؟ كم عام تظن أن عمرى سيطول إن لم أكن متشككة ساخرة ! لولا ذلك لعمدت إلى الانتحار فى الغد غريقة . . قد يكون هناك قوم خيرون ولكنى لا أعرفهم .

الضابط : أما أنا فأعرف الكثيرين منهم .

الفتاة : (تنحنى نحوه) حسناً ، والآن هل حدث أيها الفتى اللطيف أن وقعت يوماً فى مأزق ؟

الضابط : لا أظن ذلك ؟ . . أعنى مأزقاً عسيراً حقاً .

الفتاة : كلا ، أظن أنك ، بهذا الوجه الصبوح ، قد تجنبت المآزق ، حسناً ، افترض أننى مازلت فتاة طيبة ، كما كنت يوماً ما . وأنك اصطحبتنى إلى حيث تقيم أملك وشقيقاتك ، وقدمتنى لهن قائلاً : « هاكم فتاة ألمانية صغيرة ، عاطلة معدمة وحيدة » . . إنهن سيجبينك قائلات : « أوه ! يا للأسى !

فتاة ألمانية ! » ثم يذهبن ويغسلن أيديهن متبرئات .

(يحدق الضابط فيها وهو صامت)

الفتاة : هيه . . أفهمت

الضابط : (متمتماً) أنا واثق أن ثمة قوماً يقبلون .

الفتاة : لا ، إنهم لا يقبلون ألمانية حتى ولو كانت طيبة ، أضف إلى ذلك أنني لا أود أن أسترد طيبتي – لن أكون مخادعة – لقد تدربت على أن أكون رديئة المسلك – والآن ألا تنوى أن تقبلني ؟

(تضع وجهها لصق وجهه ، فتزعجه عيناها ، ويرتد إلى الوراء) .

الضابط : اعفني من ذلك ! أرجوك ! (تركز عليه نظرها فى بحلقة غريبة متسائلة) لعل هذه حماقة منى . . لست أدرى . . ولكن ، هناك فى المستشفى ، الحياة مختلفة ، فهى ليست خسيسة . . لا تسرفى فى اقترابك منى !

الفتاة : أوه ! أنت غريب – (تتوقف) أليس المساء بهيجاً ؟ لقد خلا من المناطيد . . إنها حين تحترق – يا للموت الرهيب ! . . . وجميع الناس يهللون . . هذا أمر طبيعى . . هل تحقدون علينا حدًّا ؟

الضابط : (مستديراً فى حدة) نحقد ؟ لا أدرى .

الفتاة : أنا لا أحقد حتى على الإنجليز – إنى أحتقرهم ، وأحتقر شعبى أيضاً . . بل إنى أشد احتقاراً لقومى ، إذ هم الذين أشعلوا

هذه الحرب . . أوه ! أنا أعلم ذلك . . إنى أحتقر جميع
الشعوب ، فهم الذين جعلوا العالم هكذا شقياً ، إذ قتلوا
المئات والألوف والملايين من الناس — قتلوهم جميعاً لغير
ما سبب أو هدف . . أقاموا عالماً بغيضاً ، كل من فيه يكرهون
بعضهم البعض ، ويلهثون بحثاً عن كل ما هو سيء فى
الوجود ، وهم الذين أفسدوا على طبيعتى وحياتى ، حتى لقد
فقدت إيمانى بكل شيء . بكل ما هو جميل وجليل فى
الوجود . . حتى بالله ورحمته ! من سخريات القدر أننى
كنت أقوم ، يوماً ما ، بتدريس صغار الأطفال الإنجليز
صلواتهم ، وكنت أطالع لهم فصولا عن المسيح ومحبته للبشر ،
وكان إيمانى فى جميع هذه الأمور راسخاً قوياًّ ، أما الآن فلست
أؤمن بشيء على الإطلاق ، ذلك لأن الإيمان إنما هو غذاء الأغنياء
والمنافقين. بودى أن أشتغل فى مستشفى — أن أذهب لمساعدة
الفتيان المساكين أمثالك ، ولكن المسئولين لا بد سيقذفون بى
من حالق ، لا لشيء سوى أنى ألمانية ، حتى ولو كنت من
ملائكة الرحمة ، ونفس الشيء يحدث فى ألمانيا ، وفى
فرنسا ، وفى روسيا ، وفى كل مكان ! . . فهل تظن أننى
أستطيع بعد ذلك أن أسترد إيمانى بأى شيء فى الوجود ؟ . .
كلا ، دون شك . . أعتقد أننا حيوانات . . هذا كل ما فى
الأمر ! . . لعلك تتوهم أننى أعتقد ذلك لأن الحياة التى
أعيشها قد أفسدتنى ، ولكن الأمر ليس كذلك ، فليس هذا

أسوأ ما فى الوجود . . صحيح أن الذين أتعرف إليهم من عامة الشعب لا يتسمون برقة الطبع مثلك ، ولكن هذه هى طبيعتهم التى جبلوا عليها ، ومع ذلك فهم يساعدوننى لأعيش ، وهذا أمر له أهمية عندى . . لا ، إنهم الرجال الذين يظنون فى أنفسهـم أنهـم عظماء طيبون ، ويشعلون الحرب بسم ألسنتهم وبالحقد الذى يملأ قلوبهم ، فيقتلوننا جميعاً - يقتلون الفتيان أمثالك ، ويلقون بالمساكين من الناس فى السجون ، ويفرضون علينا أن نعيش فى جو من الكراهية والبغضاء ، وجميع أولئك القوم العتاة الدمويين الذين يحررون فى الصحف - ونفس الشىء فى بلادى - هم نظراؤهم ، حذوك النعل بالنعل . . إنه بسبب هؤلاء جميعاً أصبحت أعتقد أننا مجرد حيوانات أو أدنى .

(ينهض الضابط الشاب وقد بدت عليه التعاسة فى أجلى صورها - تتابعه الفتاة بنظراتها)

الفتاة : اغفر لى ثرثرتى أيها الشاب الطيب ، فلست أعرف أحداً أحادثه بمكنون قلبى . . إذا كنت لا تحب ذلك ، ففى استطاعتى أن أصمت صمت الجرذ .

الضابط : أوه ! استمرى . . تكلمى كما تشائين ، فأنا غير مرغم على الأخذ برأيك ، بل إنى أخالفك فى هذا الرأى .

(تنتصب الفتاة هى الأخرى على قدميها ، وتستند إلى الحائط ، تقع عليها أشعة القمر فى ميل فتظهر ثوبها الأسود ووجهها

الأبيض – تستأنف الكلام ثانية فى صوت ناعم ، متريث ، يفيض بالمراراة)

الفتاة : حسناً ، بربك قل أيها الفتى الظريف ، من أية طينة صنع هذا العالم ، الذى يتعذب فيه الملايين لغير جريرة ارتكبوها على الإطلاق ؟ . . خداع ونفاق ! ثرثرة جوفاء هو ما تقولونه أيها الفتيان . . بل هراء دونه كل هراء ! فأنتم تقولون إنكم هناك ، فى جبهة القتال ، جميعكم « رفاق » تتحلون بالبسالة ، ولا تفكرون فى أنفسكم ! . . حسناً ، وأنا أيضاً لا أفكر فى نفسى كثيراً . . فما الجدوى ؟ . . أصبحت الآن ضائعة . . ولكنى أفكر فى قومى المقيمين بالوطن ، كيف يقاسون وتكتنفهم الأحزان . . إنى دائمة التفكير فى جميع المساكين من الناس هناك ، وهنا ، الذين يفقدون أحباءهم الأعزاء ، كما أفكر فى جميع أسرى الحرب التعساء ! أما يجدربى أن أفكر فيهم ؟ وإذا فعلت كيف يتيسر لى أن أستسيغ عالماً هذا شأن سكانه المعذبين ؟

(يقف الفتى دون حراك وهو يتطلع إليها مشدوهاً)

الفتاة : تطلع إلىّ ! . . لكل منا حياة واحدة سرعان ما تأتى إلى ختامها . . حسناً ، أعتقد أن هذا من حسن الطالع .

الضابط : لا ، هناك ما هو أكثر من ذلك .

الفتاة : (فى رفق) آه ! تظن أن الحرب تخاض فى سبيل المستقبل ، وأنكم تضحون بحياتكم من أجل عالم أفضل ؟ . . أليس كذلك؟

الضابط : لا بد أن نقاتل حتى ننتصر

الفتاة : حتى تنتصروا ! . . وقومى يعتقدون ذلك أيضاً . . جميع الشعوب تعتقد أنها إذا انتصرت نعم العالم بحياة أفضل ، ولكننا نعلم جميعا أن هذا غير صحيح ، وأن العالم سيزداد سوءاً دون شك .

(يستدير مبتعداً عنها ، ويتناول قبعته استعداداً للخروج — تتابعه بصوتها)

الفتاة : لن يعنينى من سينتصر . . لن أهتم لو لحقت الهزيمة شعبى . . إنى أحتقر الجميع ، فهم حيوانات ، حيوانات ! آه ! . . لا تنصرف أيها الفتى الطيب . . سأصمت الآن .

(يخرج بعض أوراق مالية من جيب سترته — يضعها على المنضدة ، ويتجه نحوها)

الضابط : (وهو يهم بالانصراف) سعدت مساء

الفتاة : (فى اكتئاب) أعازم حقاً على الانصراف ؟ ألا تحبنى حقاً ؟

الضابط : نعم ، أحبك .

الفتاة : ستنصرف إذن لأنى ألمانية ؟

الضابط : كلا

الفتاة : إذا لماذا لا تمكث معى قليلا ؟

الضابط : (بهزة من كتفه) مادمت تصرين على أن تعرفى السبب ، فاعلمى أن حديثك قد أزعجنى .

الفتاة : ألا نفترق صديقين فتقبلنى ولو مرة واحدة ؟

(ينحنى الشاب ويلمس جبهتها بشفتيه ، ولكن حين يهم بالابتعاد عنها ، تتعلق بعنقه ، وتضغط على فمه بفمها)

الضابط : (يجلس فجأة وهو متجهم) اتركينى ! لا أريد أن أحس أننى واحد من وحوش البشر الضوارى !

الفتاة : (متضاحكة) إنك فتى عجيب ! ولكنك طيب جداً . . حبذا لو تحدثت إلىّ قليلا ، فما من أحد يتحدث إلىّ . . أخبرنى ، أرأيت الكثيرين من أسرى الحرب الألمان ؟

الضابط : (متنهداً) كثيرين جداً

الفتاة : أمنهم من كان من الراين ؟

الضابط : نعم ، أظن ذلك .

الفتاة : أكانوا شديدى الحزن ؟

الضابط : بعضهم كانوا كذلك ، بينما كان هناك آخرون مبتهجون جداً لأسرهم .

الفتاة : ألم تشاهد الراين قط ؟ سيكون رائعاً هذا المساء . . هناك سيرسل القمر نفس هذه الأشعة ، وفى روسيا أيضاً ، وفى فرنسا ، وفى كل مكان . . وستبدو الأشجار بهيجة كما تبدو هنا ، وسيتقابل الناس فى ظلالها يتسامرون ويتبادلون القبلات كما يفعلون هنا سواء بسواء . . أوه ! أليست الحروب نتاج تفكير أحمق ملتاث ؟ . . أليس السلام أعظم نعمة فى الوجود ؟ ! . . هل صغرت الحياة وهانت إلى حد التفريط

فيها على هذا النحو ؟

الشاب : ليس باستطاعتك أن تعرفى قيمة الحياة حتى تواجهى الموت . . ولن تحسى الحياة نا بضة حية حقاً قبل هذه المواجهة . . وحين يستولى على جماعة بأكملها منكن هذا الإحساس ، وتصبحن على استعداد للتضحية بأرواحكن ، كل واحدة عن الأخرى ، يعوضكن هذا الإحساس عن كل ما يتبقى من حياتكن مجتمعات .

(يتوقف وهو يشعر بالخجل إذ ساوره مثل هذا الإحساس أمام هذه الفتاة التى لا تؤمن بأى شىء) .

الفتاة : (برقة) كيف جرحت أيها الفتى اللطيف ؟

الضابط : حينما عمدنا إلى الهجوم فى العراء ، أصابتنى أربع قذائف دفعة واحدة .

الفتاة : ألم يستبد بك رعب شديد حين صدر إليك الأمر بالهجوم ؟
(يهز رأسه وهو يضحك) .

الضابط : كان أمراً عظيماً ! لقد ضحكنا حقاً فى ذلك الصباح ، ولكن الأعداء أصابونى أسرع جداً مما توقعت . . كانت خدعة !

الفتاة : (تتطلع إليه مشدوهة) ضحكتم ؟

الضابط : نعم ، وماذا تظنين كان أول شىء شعرت به فى صباح اليوم التالى ؟ . . شعرت بقائد فرقتى الشيخ ، منحنياً فوقى ، يسقينى عصير الليمون . . لو قدر لك أن تتعرفى إلى قائد فرقتى لرد إليك إيمانك بمعنويات الحياة ، فثمة شىء ،

كما تعلمين ، وراء كل هذا الشر . . ومع ذلك فليس باستطاعة المرء أن يموت سوى مرة واحدة ، وحبذا لو استشهد فى سبيل الوطن ، فذلك أفضل !

(وجهها ، فى ضوء القمر ، بعينين مركزتين ، تشع منهما نظرة غريبة جدًّا ، حتى لكأنها من عالم آخر)

الفتاة : لا — أنا لا أؤمن بشىء . . حتى ولا بوطنى . . لقد مات قلبي !

الضابط : نعم . . تظنين هذا ، ولكن الأمر ليس كذلك ، كما تعلمين ، وإلا لما كنت تبكين حين لاقيتك .

الفتاة : أتظن أنه كان باستطاعتى أن أعيش على هذا النحو لو لم يكن قلبى قد مات — أتسكع كل مساء فى الطرقات ، ولا أسمع قط كلمة عطف واحدة . ولا أنبس ببنت شفة خشية أن أعرف بأنى ألمانية ؟ . . لابد أنى سأدمن الخمرَ سريعاً ، وعندئذ أصبح « عاطلة » عن كل كسب . . ها أنت ترى أنى عملية لا أسبح مع الخيال ، بل أرى الأشياء فى وضوح . . صحيح أننى عاطفية قليلاً هذا المساء ، فالقمر رائع كما تعلم ، ولكنى الآن أحيا لنفسى فقط ، غير مكترثة بأى شىء ، أو مهتمة بأى إنسان .

الضابط : هذا لا يغير من الواقع شيئاً ، فقد كنت الآن فقط ترثين لحال قومك فى الوطن ، وتندبين حظ أسرى الحرب ، وغير ذلك .

الفتاة : نعم ، ذلك لأنهم يقاسون ويتعذبون . . وأنا أيضاً أقاسي وأتعذب – فهم مثلي وأنا مثلهم – إني أرثي لنفسي ، هذا كل ما في الأمر – إني أختلف عن نسائكم الإنجليزيات ، فأنا مدركة تماماً كلَّ ما أفعل . . أنا لا ألغي عقلي أو أشله عن العمل بسبب عدم اكتراثي للنواهي الخلقية !

الضابط : وكذلك حالك مع قلبك ، رغم كل ما تقولين .

الفتاة : إنك عنيد جداً أيها الفتى اللطيف ، فكل ما يقال عن الحب والحنان إنما هو خداع وهراء . . إننا نحب أنفسنا ، لا أكثر !

(ينهض الضابط الشاب وهو يشعر بغصة في حلقه ، لدى سماعه هذه الكلمات ، التي تفيض بالمرارة والأسى ، ويقف عند النافذة – صبي من باعة الصحف ينادي من بعيد على ما يحمله من مجلات وصحف – تشبك الفتاة أصابعها بأصابع الضابط وتظل ساكنة دون حراك – يدير رأسه نحوها ويحملق في وجهها – على الرغم من التجميل الصناعي فثمة حسن آثم فتان يبدو على هذا الوجه)

الضابط : لا – إننا لا نحب أنفسنا فقط – هناك ما هو أكثر من ذلك – لا أستطيع أنه أوضح – ولكن هناك أشياء عظيمة – هناك الحنان – و – و –

(يزداد صياح الصبيان بائعي الجرائد ارتفاعاً ، وتتشابك نداءاتهم وتتعارض حتى ليصعب تمييز كلماتها بسبب ما يفعمها من انفعال قوي – يرفع رأسه ويرهف أذنيه منصتاً –

تشتد قبضة يدها متوترة وهى الأخرى ترهف أذنيها منصتة — تزداد نداءات باعة الصحف اقتراباً وارتفاعاً وصخباً — يبدو كما لو كان فراغ ضوء القمر فى الخارج قد ازدحم فجأة بأشباح الناس ووقع الخطوات وعجيج الأصوات ، ومن بعيد تسمع هتافات ونداءات متهللة تقول : « نصر عظيم : — نصر عظيم ! رسمى ! بريطانى ! هزيمة ساحقة للألمان ! أسر آلاف عدة ! هزيمة ساحقة ! » . . تمر هذه الرؤى والأصوات سراعاً ، فتسكره وتملؤه بنشوة عارمة من الابتهاج - يطل من النافذة بالجزء الأكبر من جسده ، وهو يلوح بقبعته ويهتف كمن به لوثة ، ويتراءى الليل كما لو كان يرفرف ويتماوج ويستجيب — يستدير مندفعاً يبغى النزول إلى الشارع ، ولكنه يصطدم بشيء لين أملس ، فيرتد متراجعاً — تقف الفتاة بيدين مطبقتين ، ووجه متشنج ، وهى تلهث – الكل مرتبك يريد أن يصنع شيئاً ، وعندئذ ينحنى الشاب ليقبل يدها ، فتنتزعها منه ، وتجمع أوراق النقد التى تركها لها ، وتمد له يدها بهذه الأوراق لتردها إليه

الفتاة : خذها – لن أقبل نقودك الإنجليزية – خذها !

(فجأة تمزقها إرباً إرباً ، وتلقى بهـا إلى الأرض ، وتدير له ظهرها – يقف ويتطلع إليها وهى متكئة على المنضدة المغطاة بالمخمل ، ورأسها منكس ، بعد لحظة قصيرة يأخذ طريقه نحو الباب ليخرج – تظل الفتاة واقفة برهة بعد انصرافه

دون حراك ، ومازالت تدوى فى أذنيها الهتافات ووقع الخطوات وأصوات النداء على الصحف : « هزيمة ساحقة ! » ، وهى واقفة ومن حولها قد تناثرت قصاصات أوراق النقد الممزقة — تشخص ببصرها ، كالحالمة ، نحو ضوء القمر ، فلا ترى حجرتها البغيضة أو الميدان الكريه الذى تطل عليه ، إنما يتراءى لها شخصها ، وهى صبية صغيرة ، داخل حديقة فواكه ألمانية ، وقد راحت تقطف ثمرات التفاح ، وبجانبها كلب كبير ، كما راحت تمر بمخيلتها مثات أخرى من المناظر البهيجة ، ثم تهاوت إلى أرض الحجرة ، التى تغطيها سجادة مغبرة ، فتوسدتها ولصقت بها جبهتها — بطريقة آلية تجرف مزق أوراق النقد المتناثرة وتجمعها مع الغبار فى كومة واحدة ، كأوراق الشجر المتساقطة ، وتلعب فيها بأناملها بينما تنساب الدموع على خديها)

الفتاة : الهزيمة ! . . أرض الآباء ! . . شلن واحد

وفجأة فى ضوء القمر ، تجلس معتدلة ، وتروح تطلق عقيرتها مدوية بنشيد « الحراسة على الراين » ، بينما يمر الرجال فى الخارج وهم ينشدون « احكمى يا بريطانيا ! »

ينزل الستار

مسرحية السوقة

هى قصة البطولة فى أروع وأمجد صورها ، بطولة الجلد والبسالة والتضحية وإنكار الذات .

بل هى قصة الإيمان القوى الراسخ ، الإيمان بالإنسانية وبمثلها العليا ، فى عصر تألهت فيه القوة ، واستبدت بالرأى العام فكرة مدمرة جامحة .

بل هى قصة اليقين الثابت المطمئن ، اليقين بأن الحق لابد أن يعلو : وأن الغلبة لن تكون للقوى ، بل لكل ذائد عن هذا الحق ، أو بتعبير آخر ، إن الغلبة ستكون دائماً للقوى ، بعد أن ينقلب معنى القوة من النقيض إلى النقيض ، وليس هذا جديداً ولا هو بالعجيب ، فقد أصاب هذا المعنى منذ القرون الوسطى حتى الآن غير قليل من ضروب التحوير أو التغيير ، فاختفت قوة السيف والدرع ممثلة فى نظام الفروسية القديم ، واستعيض عنها بقوة الدهاء السياسى والحيل الميكافيلية ، ثم استبدلت هذه الأخيرة بقوة الآلات والمخترعات ، وها نحن أولاء على أبواب عصر جديد ، سينقلب فيه معنى القوة رأساً على عقب ، ويبدل بما هو أسمى وأنبل ، أعنى قوة التحكم فى غرائز النفس ، والانتصار على ما تضطرم به أعماق الإنسان من نزعات الشر .

بل هى قصة الاعتداد الذى لا يفسده صلف أو يشوبه غرور . . الاعتداد النبيل الذى تفيض عنه بعض النفوس البشرية الكبيرة ،

المؤمنة بما فى الحياة من حق وجمال ، الصادقة فى التعبير عن خوالجها واستجاباتها لما يصادفها من مشكلات ، والتى لا تخشى الحقيقة مهما كانت سيئة ، ولا تنكص عن مواجهتها ، بل ولا عن ملاحقتها وتذليلها .

بل هى قصة قد أفسح فى صدرها ، ومُدّ فى أفقها حتى وسعت هذا كله ، فبطلها رجل قد حوت نفسه أشتات الفضائل ، وفاض قلبه عن أنبل العواطف ، إذ تلاقى الإيمان فى أعماقه باليقين ، والبسالة بالتضحية ، والاعتداد بإنكار الذات .

* * *

هو ذا البطل يبدأ جهاده الطويل الشاق ، الذى تحفه الأهوال من كل جانب ، وهاهم أفراد أسرته يجتمعون ليناقشوا الفكرة التى عزم على أن يجاهد فى سبيلها ، فيجمعون على تخطئته ، ويحاولون جاهدين أن يثبطوا عزيمته ، ويفتوا فى عضده ، ولكن دون جدوى ؛ وها هم أخيراً يهددون بالتبرؤ منه إذا أصر ، فيعلنهم بالإصرار .

ففى سبيل الحق الذى انبرى للدفاع عنه وحيداً ما سيلاقيه ! !

أجل ، فى سبيل الحق الذى شرب سقراط كأس السم ومات كى يحييه ! !

والذى آمن به أرسطو وانتقص من حكمة معلمه أفلاطون كى يعليه ! !

وأخيراً فى سبيل الحق ما ادخره القدر لهذا البطل من صراع جبار رهيب ضد أسرته وأمته معاً ، وضد أعدائه وأصدقائه أجمعين ! !

ولكن للبطل حججه يدلل بها على الحق الذى آمن به وعزم على أن

يجاهد فى سبيله ، وله براهينه يفحم بها خصومه ، وإن كان الإيمان لا يحتاج إلى حجة أو برهان ، بل هو كثيراً ما تعوزه الحجة ويعوزه البرهان ، ذلك لأن الإيمان قبس قدسى يشعه القلب الكبير ، وللقلب لغة تسمو على اللفظ ، ولا تنزل إلى برهان من البراهين .

* * *

كانت الجلسة التى نوقش فيها هذا العزم الخطير ، تضم « سير جون » والد زوج البطل – أجل فهو بطل سواء أرضى هذا النعت أنصار الفن المسرحى الحديث أم لا – ثم « أسقف ستاور » وهو شقيق « سير جون » الآنف الذكر و « إدوارد منديب » صديق الأسرة الحميم ، و « كاترين » زوج البطل ، و « هيلين » زوج شقيق كاترين ، وأخيراً البطل « مستر ستيفن مور » وهو فى مستهل العقد الخامس من عمره ، فارع العود ، وسيم الطلعة ، باسم الثغر ، تنطق عيناه بأنه ممن يهيمون بالمثل العليا .
وقد دار الحوار بينهم كما يلى :

الحوار

الأسقف : لست من رأيك يا استيفن . . . أنت وأنا على طرفى نقيض .
ستيفن : لعلك لا تحملنى وزر هذا الخلاف
إدوارد : تذكر يوم أن قمت بدعوتك يا استيفن إلى السلام فى ظروف مماثلة ، هل قدر الشعب تلك الدوافع النبيلة التى كنت تسير بوحى منها ؟ ! لقد اكتفى الشعب بإهمالك

والإغضاء عنك إذ ذاك ، رفقاً منه بك ، إذ كنت فى مستهل حياتك النيابية ، أما الآن ، وأنت وكيل وزارة مسئول ، فثق أنه لن يغتفرها لك .

ستيفن : أهذا جزاء من يرضى ضميره ؟ عجباً !

إدوارد : ليس حسناً أن يرضى المرء ضميره على حساب الآخرين يا صاح .

الأسقف : إن الحكومة تعامل جنساً همجيًّا متوحشاً ، غير أهل لأى عطف أو إشفاق .

ستيفن : لقد صنعهم الخالق يا سيدى الأسقف .

إدوارد : لدى ما يبرر الشك .

الأسقف : لقد أقاموا الدليل على خيانتهم ، فحق لنا أن نؤدبهم .

ستيفين : أيحق لى أن أعاقب شخصاً لأنه جازانى بما أستحق ، وكال لى بنفس الكيل الذى كلت له به ؟ !

سيرجون : ولكنا لم نبدأهم بالعدوان

الأسقف : مما يثير الدهشة حقًّا أن تحاول تبرير جريمة القتل التى ترتكب ضد الحضارة ورسلها ! ! لقد قتل المتبر برون الكثيرين من خيرة رجالنا المجاذفين الشجعان .

استيفن : على نفسها جنت براقش . . لقد أخطأوا إذ جاذفوا باقتحام بقاع كهذه ، متحدّين شعور القبائل وعواطفهم ، والرأى عندى أن الأمة يجب ألا تعنى بما يصيب هؤلاء المغامرين المقامرين .

سيرجون : من العار أن نلوذ بالسكون ونعتصم بالصمت بينما ينهش المتوحشون لحومنا ويسفكون دماءنا .

الأسقف : أتنكر أننا نتوخى العدالة دائماً فى حكمنا للشعوب ، ونسعى جاهدين لخيرها ؟ !

ستيفن : لست أنكر دون شك ، ولكنى لا أؤمن بالخرافة الشائعة التى تزعم أننا قادرون على إفادة شعب كهذا تفصله عنا هوة عميقة من التباين فى التفكير واللون والدين بل وفى كل نزعة من نزعات النفس . . يقينى أن النهاية المحتومة لتدخلنا فى شئونهم هى بلبلة أفكارهم ، وإفساد غرائزهم .

الأسقف : لست أفهمك .

إدوارد : لو أنك تعمقت يا استيفن إلى أغوار هذه الفلسفة التى أتيت بها ، لوجدت أنها ستؤدى بنا حتماً إلى الركود الاجتماعى والعقم ، فليس ثمة نجوم ثوابت فوق البسيطة يا صاح ، وليس بمستطاع قط أن يعيش شعب ما بمعزل عن باقى الشعوب .

ستيفن : تستطيع الشعوب الكبيرة أن تدع الشعوب الصغيرة أو المتخلفة وشأنها .

إدوارد : نحن نعلم يا صاحبى أنك قد اتخذت من هذه الشعوب الصغيرة والدفاع عن قضيتها هواية لك ، ولكن لزام عليك وقد أصبحت من رجال الدولة المسئولين ألا تشتط مع العاطفة ، وألا تسقط الواقع من حسابك .

سيرجون : لقد خدمت بلادى خمسين عاماً ، وإنى لفخور أن أعلن أنها لم تكن على ضلال فى يوم من الأيام .

ستيفن : وأنا صادق الرغبة فى أن أخدم بلادى خمسين عاماً ، ولكنى أعلن أنها الآن على ضلال .

إدوارد : إن البلاد تجتاز الآن ظرفاً دقيقاً لا يصح معه الإفصاح عن مثل هذه الشئون يا استيفن .

ستيفن : سأعلنها الليلة يا إدوارد .

إدوارد : بمجلس العموم ؟ !

ستيفن : نعم .

كاترين : (مأخوذة) ستيفن !

إدوارد : لابد من منعه يا سيدتى . . هذا جنون دون شك ! !

ستيفن : لك أن تجاهر الناس بهذا الرأى . . وإذا شئت ، فلتحرر له مقالاً افتتاحيًّا بإحدى صحف الصباح .

إدوارد : هذا خبل سياسى ! ! . . ليس لمن كان فى مثل مركزك أن يتنكر لبلاده ، بمثل هذه الصورة ، عند اللحظة الأخيرة .

ستيفن : لم أحاول إخفاء مشاعرى يوما ما . فليس هناك من يجهل أننى لست من أنصار الحرب أو الاستعمار .

إدوارد : لا تكن شاذ الأطوار يا صاح . . إن الحرب لابد معلنة اليوم ، ولن يتيسر لك أو لكائن من كان أن يوقفها .

هيلين : (فى انزعاج) أوه ! لا تقل هذا

إدوارد : لم أقرر غير الواقع يا سيدتى .

سيرجون : ليس هناك أدنى شك فى صحة ما يقرره يا هيلين .

إدوارد : « مخاطباً ستيفن » وهل ستصر يا استيفن على أن تميد

إلى التاريخ شخصية دون كيشوت الخالدة ، فتروح تهاجم طواحين الهواء .

« استيفن يومئ بالإيجاب »

إدوارد : هذا عظيم !

استيفن : لست أبغى الإعلان عن نفسى .

إدوارد : ولكن هذا من شأنه أن يؤدى بك حتماً إلى هذا الإعلان .

استيفن : لابد من قول الحق ولو تعرض المرء أحياناً لمثل هذا الموقف غير المحمود ، ومهما عانى فى هذه السبيل .

سيرجون : ولكن هذا ليس حقًّا أو شبه حق .

إدوارد : كلما عظم شأن الحق كثرت ألفاظ السباب والقذف التى تصاحبه ، وتفاقمت مرارة الضغينة التى تملأ قلب الشخص الذى يصيبه هذا القذف .

الأسقف : « محاولا التوفيق وتسوية الأمر » يا عزيزى استيفن ، حتى ولو كنت على حق – وهذا مالا أراه – فهناك حالات يجب أن يرضخ فيها الضمير الفردى إزاء شعور الجماعة ، أو شعور الشعب ، ولابد أن تلاحظ أن المسألة التى تناقشها الآن قد أصبحت وثيقة الصلة بالشرف القومى .

سيرجون : لقد أجدت القول يا جيمس ، وأحسنت التعبير .

استيفن : إن الشعوب هى أسوأ القضاة ، عندما تصدر أحكاماً تتصل بشرفها يا سيدى الأسقف .

الأسقف . هذا رأى لا أومن به يا صاحبى .

استيفن : « فى صراحة صلدة » لا . . بل أنت لا يعجبك قول الحق عندما يكون هذا الحق صارماً مريراً .

كاترين : « تعترض الأسقف حتى لا يسترسل فى النقاش » عمى جيمس . . دعه وشأنه . . أرجوك . .

« يتطلع إليها استيفن فى تمعن » .

سيرجون : وإذا فقد عقدت العزم على أن تتزعم فئة الضالين الفاشلين . . وإن تحطم مستقبلك ، وبذلك تجعلنى أحس عار انتسابك إلىّ كزوج لابنتى ؟ !

استيفن : هل لزام على المرء ألا يعتنق سوى الآراء التى يهلل لها العامة ؟ ! لقد كنت أنت بالذات يا سير جون موضع نقد الجماهير وتهامسهم مرات ومرات .

سيرجون : لم أك يوماً من الأيام خصماً لبلادى . . إن كلمتك فى مجلس العموم لابد ستنشر فى كافة الصحف الأجنبية ، إذ هى لن تدع فرصة كهذه للتشهير بنا وببلادنا تفلت من يدها ، وبذلك سنصبح أضحوكة لكل الأمم .

استيفن : وإذا فأنت ترى أن المسألة من شأنها أن تعرضنا للنقد ، وأن تجعل منا أضحوكة يسخر منها الآخرون ؟ !

سيرجون : « محتداً » لا تحاول التأويل وفق هواك ، فأنا لا أرى شيئاً مما تقول .

الأسقف : لقد تحرجت الأمور إلى أقصى حد ، ولابد من علاج حاسم سريع حتى لا يتفاقم الحال هناك . . تعالى يا كاترين ،

يا عزيزتى ، وضمى صوتك إلى أصواتنا .

استيفن : ألزام علىّ أن أدافع عن بلادى سواء أخطأت أم أصابت ، وحتى إذا أجرمت ؟ !

إدوارد : لابد من الإجماع على تحطئة المخطئ . « تنهض كاترين والأسقف معاً »

الأسقف : « فى صوت خافت » سيقضى المسكين على نفسه حتماً .

سيرجون : هذه خيانه !

استيفن : لن أدافع عن الظلم ، أو عما أعتقد أنه ظلم .

كاترين : « كمن تقرر الحقيقة » والدى ونحن جميعاً ننفر من الظلم والظالمين .

« يدخل هوبرت جوليان وهو شاب فارع العود ، عسكرى المنظر »

هيلين : « فى ترحيب » هوبرت !

« تتجه إليه مرحبة به ويتحدثان معاً قرب الباب »

سيرجون : أفصح عن رأيك ! لقد طال ترقبنا لعودتك إلى محجة الهدى والسداد . . لا لم يعد فى قوس الصبرمنزع .

استيفن : الرأى عندى أنه من الواجب علينا نحن الأقوياء أن نترفق بالشعوب الضعيفة ، مهما كان تخلفها عنا . . حبذا لو اتخذنا من الكلاب قدوة لنا فى ترفق الكبير منها بالصغير !

إدوارد : ليست الأمور من اليسر والبساطة إلى هذا الحد يا استيفن !

ستيفن : عجباً ! ولماذا تغفل الشعوب قواعد النخوة والشهامة المتبعة فى

دبيا الكلاب ، وأية حجة يتيسر لهذه الشعوب أن تسوقها كيما تبرر بها هذا الإغفال بل هذا الانحلال ؟ !

إدوارد : استيقظ أيها البطل الحالم الذى يجرى وراء سراب خادع من أهداف، فاشلة لن تتحقق .

ستيفن : إن هذا الهدف الذى ألتمسه لن يفشل يا إدوارد . . قد لا يتحقق سريعاً ، ولكنه لابد أن يتحقق

إدوارد : بل هو فاشل دون شك ولن يتحقق . . هو فاشل عن حق أو عن غير حق ، فليس ثمة شك أن لفظ « الوطنية » فى هذه الفترة العصيبة له بريق يخطف أبصار المواطنين جميعاً وخاصة العامة منهم . . فاحذرهم !
احذر العامة والسوقة يا ستيفن .

ستيفن : مثار عجبى البالغ أن تطلب إلىّ ، وأنا رجل مسئول ، أن أتنكر لعقيدتى – فى سبيل إرضاء السوقة أو خشية بطشهم لم تعد ، المشكلة ، فى رأيى ، ذات علاقة بالحق أو بالباطل ، وما إذا كنت أنا على صواب أو على غير صواب ، إنما باتت المشكلة أخطر من هذا بكثير ، إذ أصبحت وثيقة الصلة بكرامتى وشرفى ، فإما أن أنافح عن عقيدتى كواحد من ذوى المبادئ الشرفاء ، أو أن أتحاشى غضب السوقة وسخطهم ، ثم أتسلل من ميدان الجهاد والكفاح ، فى استخذاء ذليل ، تسلل الجبناء الأدنياء .

الأسقف : لقد حان موعد انصرافى .

« يوجه الخطاب إلى كاترين »

مساء الخير يا عزيزتى .

« يحى الآخرين وأخيراً يخاطب إدوارد »

هل لك فى مرافقتى ؟ . . أن طريقنا واحد .

إدوارد : « يومئ موافقاً » . . « يرد على الأسقف قائلا » آجل . . وأشكر لكم .

« يحى الجميع وأخيراً يخاطب كاترين » عمى مساء مسز مور . . لا تأذنى لاستيفن بتنفيذ ما هو مقدم عليه ، ففيه دماره دون شك .

« ينصرف بصحبة الأسقف . . ثم تتأبط كاترين ذراع هيلين وتصحبها إلى الخارج . . يظل سيرجون واقفاً قرب الباب . . أخيراً يوجه الأخير حديثه إلى استيفن »

سيرجون : لست أجهل أن لك بعض الآراء المتطرفة يا ستيفن ، ولكن لم يك يخطر لى على بال قط أن زوج ابنتى سيصبح يوماً ما من دعاة السلام بأى ثمن .

ستيفن : لست كذلك . . ولكنى أوثر ألا أنشتبك فى أى صراع إلا مع من كان نداً لى لا مع ضعيف مسكين هو أهل لعطفى ورثائى دون شك .

سيرجون : حسنا . . إنى أضرع إلى الله أن تعود إلى رشدك ، فلا ترتكب حماقة إلقاء هذا الخطاب . . لابد أن أعود الآن إلى ..

وزارة الدفاع . . مساء الخير .

« يتقدم هوبرت نجل السير جون وشقيق كترين فى أثناء انصراف والده ليحييه فى احترام .

ويتفرس فى ستيفن زوج شقيقته . . بعد هذا يقف صامتاً وقد بدت على محياه علامات الكآبة والانكسار . . إنه شاب حسن التكوين ، وديع النظرات ، لازال فى ميعة الصبا وربيع العمر ، لم يكد يمر عام واحد على زواجه بهيلين » .

هوبرت : « وهو يخاطب مستر ستيفن زوج شقيقته » لقد صدرت إلينا الأوامر .

ستيفن : آه ! متى تبحرون ؟

هوبرت : فى الحال

ستيفن : مسكينة هيلين !

هوبرت : . . . ولم نكد نتم العام الأول من زواجنا . . ما أسوأ حظنا وما أشد اسوداد طالعنا !

« ستيفن يمس ذراع هوبرت فى إشفاق . . يتابع الأخير كلامه » هيه ! علينا أن نكبت مشاعرنا وألا نفصح عن عواطفنا . . اسمع يا استيفن . . إياك وأن تجاذف بإلقاء خطابك فى مجلس العموم ؛ اشفق على كترين فلا تسحق قلبها ، وأيضاً قدر حروجة مركز أبى فى مجلس الدفاع الأعلى وما سأعانيه أنا فى هذه الحرب فلا تضاعف ألمى بإصرارك على هذا الموقف مهما كانت دوافعك إليه . . إنى أخشى عليك

فلتات اللسان خاصة عندما تنساق بحرارة للدفاع من أمر من الأمور .

ستيفن : لابد أن أتكلم يا هوبرت .

هوبرت : لا . لا . لا تجاذف بالكلام هذا المساء ، فبعد ساعات لابد ستعلن الحرب .

« ستيفن يتحول عنه »

« هوبرت يتابع كلامه »

. . . وإذن فإذا كنت لا تكترث الفقدان مركزك أو وظيفتك فلا أقل من أن تحرص على سعادة زوجتك ، وأن تنأى عن أن تكون سبباً فى تحطيم قلبها .

ستيفن : ولكنك وأنت شاب غض الإهاب لن تحاول التنصل من القيام بواجبك فى سبيل زوجتك

هوبرت : إنك عنيد يا ستيفن ، ولكنك مع الأسف الشديد كناطح الصخر ، أو كراكب الفيل الهائج .

« يخرج هوبرت وتدخل كاترين عقب خروجه »

كاترين : هل تنوى الكلام فى مجلس العموم حقًّا يا ستيفن ؟

« يومئ ستيفن موافقاً »

« تستمر كاترين فى حديثها إليه » . . ولكنى أطلب إليك ألا تتكلم .

ستيفن : ليست مشاعرى بخافية عليك يا عزيزتى كترين ، ولكن العاطفة شيء والواجب شيء آخر . . . أيرضيك أن أحس

المهانة والذلة بالنكول عن أداء واجبي ! ؟

كاترين : بل إني لموقنة بأن المهانة لن تلحقك إلا من جراء إصرارك على مهاجمة بلادك ، وقلب ظهر المجن لها ، والتصغير من شأنها .

* * *

ولكن ستيفن أصر على موقفه بالرغم من محاولة زوجه وأصدقائه جميعاً أن يثنوه عن إلقاء البيان الذى استعد لإلقائه بمجلس العموم ، فتوجه إلى هذا المجلس بجنان قوى وجأش ثابت غير عابئ بتيار الرأى العام ما دام لا يؤمن بما يؤمن به ، بل لعله كان يسخر بهذا الرأى العام ، ولذلك فقد صح منه الرأى الثابت المكين أن يقف فريداً وحيداً يجهر برأيه ، فى اعتداد وإيمان ، دونهما كل اعتداد وإيمان ، ولا يحسهما إلا أحرار الفكر والأبطال من الناس ، وليكن بعد هذا ما يكون ، ولتزلزل الأرض زلزالها ، وتخرج أثقالها ، فهذا لن يعنيه فى كثير أو قليل ، مادام سيفصح عن كلمة الحق المدوية التى تدك الجبال دكا ، وإن لم تصل إلى بعض الأسماع ، وهى أسماع مرضى القلوب ، إلا همساً ، أو ما هو أضعف وأكثر خفوتاً من الهمس . . وبين صفير الاستهزاء الصادر من الأغلبية العظمى من أعضاء مجلس العموم المتحمسين الغاضبين ، وإشفاق النفر القليل من الأصدقاء والمحبين ، راح ستيفن يلقى بيانه ، محاولاً بكل ما أوتى من جهد ، أن يصرف المجلس عن إعلان الحرب

الشريرة غير المتكافئة ، ضد شعب ضعيف أعزل ، ولكن الزمام كان قد أفلت من يده إلى الأبد ، ووافق المجلس على استئصال هذا الشعب المسكين ، وكانت هذه الموافقة المتعدية غير الكريمة بالإجماع أو بما يشبه الإجماع .

* * *

خرج استيفن من المجلس وقد زادته المزيمة إصرارا على موقفه ، وضاعفت رغبته فى النضال ، فلاقى من ألوان العنت والنصب والعناء ، ما كان حريًّا أن يصرفه عن إصراره على رأيه ، ويرغمه على تعديل وجهة نظره ، ولكنه لم يهن ، ولم يكف عن الكفاح ، فى سبيل عقيدته ، فتحمل إهانة السوقة من الناس ، فى صبر عجيب ، وفى رثاء صادق لهذه الطائفة المخدوعة ، التى تحركها وتعبث بها شرذمة غير أمينة ، من ذوى الأغراض ، ومن غير الشرفاء .

ظل استيفن فى موقفه ، ثابتا كالطود الراسخ ، وراح يكتب مجاهراً برأيه فى الصحف القليلة التى بقيت على ولائها لدعوته ، بل ذهب إلى أبعد من هذا ، إذ راح يزور القرى والأقاليم ، يعقد فيها الاجتماعات ، ويخطب الناس ، موضحاً لهم وجهة نظره فيما يتصل بهذه الحرب الغشوم غير المتكافئة ، غير مكترث بما كان يلاقيه فى كل مكان يحل به ، من ازورار الناس وانصرافهم عنه ، ومن تهجم السوقة عليه ، وعلى زوجه ووحيدته ، الأمر الذى أرغم هذه الزوجة المسكينة إلى هجرانه ، واضطر خدمه جميعاً إلى الهروب من خدمته للنجاة من سخط هؤلاء السوقة .

وفى إحدى الليالى ، تحرش به فريق من أوشاب الناس ، فى أثناء

انصرافه من إحدى هذه المجتمعات ، وشرعوا يمطرونه بكل قول بذىء ، فلما أراد أن يصرفهم عن هذا الفحش ويشق طريقه بينهم ، تعرض له شرير أثيم من بينهم ، ثم كالوا له الضربات بعصا غليظة على رأسه ، فخر على الأرض مغشياً عليه ، ثم تكأكأ عليه الصاخبون ، وهو بين الحياة والموت ، ولم يلبث لحظات حتى أسلم الروح .

* * *

ينزل الستار
ثم يرفع بعد فترة قصيرة

وعندئذ يختم الكاتب مسرحيته الرائعة ، بمنظر صامت معبّر ، لتمثال بالحجم الطبيعى لبطل هذه القصة ، أعنى ستيفن مور ، مقام على قاعدة من الجرانيت ، فى أكبر ميادين لندن .

يتراءى التمثال وكأن الوقت فى فجر أحد أيام الربيع الطلق الجميل ، حيث الطبيعة قد سخت فألبست أشجار الميدان حلة زاهية خضراء ، ثم يأخذ نور الفجر فى الازدياد ، حتى تظهر على قاعدة التمثال هذه العبارة واضحة مقروءة :

أقيم هذا التمثال لتخليد ذكرى
ستيفن مور
مات شهيد تمسكه بعقيدته ومثله العليا

خاتمة الكتاب

جلزورذى الرجل والإنسان

ولابد قبل اختتام هذا البحث أو هذه العجالة من كلمة عن جلزورذى الرجل والإنسان ، على الرغم من أنه لا يختلف كثيراً فى طريقة معالجته لمشكلات الحياة عن جلزورذى الكاتب والأديب ، فى مسرحياته وقصصه وغيرها من إنتاجه الأدبى .

لقد آمن جلزورذى إيماناً عميقاً أن سلطان الرجل فى منزله وبين أفراد أسرته لابد أن يقوم على أسس قوية من التفاهم والتعاطف والاحترام المتبادل بينه وبين زوجه وأبنائه جميعاً ، فلا يتصلب ويتعالى إلى حد الاستبداد برأيه ، ولا يلين ويستسلم إلى حد الخنوع والاستخذاء ، وهكذا توطدت صلة جلزورذى شخصيًّا بزوجه التى ظلت وفية له ولذكراه بعد مماته ، وفاء دونه كل وفاء ، تدافع عن آرائه ضد خصومه ، دفاع المستميت ، وتحاول أن توضحها وتجلو غامضها ، لمن يرغبون من أحبائه ومريديه وعشاق أدبه العديدين .

ولقد رسمت مسز أيدا جلزورذى لزوجها ، فى علاقتها به ، تصميم فكرته عن الأنثى ، ووضعت له أسسها ، ثم جلت له ما استغلق عليه فهمه من أسرار طبيعتها ، ومكنون غريزتها ، حتى أصبحت هذه الغريزة المتشعبة المستعصية المبهمة ، التى حيرت الرجال جميعاً ، العقلاء منهم

وغير العقلاء ، واضحة المعالم والحدود ، ناصعة الانطباع فى ذهنه ، لاخفاء منها ولا غموض ، إذ يسرت له تقصيها فى تصرفاتها معه ، واستجابتها لما يبديه نحوها من حب وحنان تارة ، ومن حزم مهذب كريم تارة أخرى ، ثم راح يكتب عن غريزة الأنثى على ضوء من هذا الفهم السليم الذى دعمته التجربة ، وسدد الاختبار خطاه .

بيد أننا لا يهمنا أو يعنينا أن نقرر أنه كتب عن هذه الغريزة أكثر من مسرحية ، وأنه قد وفق فيها توفيقاً كبيراً ، بقدر ما يهمنا ويعنينا أن نثبت أنه قد مارس الأمر بنفسه فى حياته الخاصة ، فكان بذلك قدوة ومثلا وبرهاناً حيًّا يثبت كل رأى أدلى به فى هذا الشأن .

ولقد كان جلزوردى شديد التعلق بالأطفال ، كثير الشغف بالأزهار ، وافر الرفق بالطيور والحيوان الأعجم ، بل لقد كان يعامل الجماد الأصم كما لو كان كائناً حيًّا ، يعيش ويتحرك ، فكثيراً ما كان يحتفظ بقطعة معينة من أثاث منزله ويحرص عليها ، لا لشىء إلا لأنها تعيد إلى ذهنه ذكريات معينة ، من شأنها أن تجعل هذا الرجل ، المرهف العواطف ، يحس كما لو كان هذا الأثاث ، الصلد الجامد ، ينبض بالحياة أو بما يشبه الحياة .

وبالرغم من عدم إحراز جلزوردى أى تفوق ملحوظ فى كتابة الشعر ونظم القريض ، فقد كان يتعامل فى حياته مع الناس جميعاً بروح الشاعر الأصيل ودقة حسه ، وفى رحابة صدر الأديب الإنسان وخصوبة نفسه ، ولهذا كان من أكثر الناس فهماً لوحدة الإنسانية المشتركة ، واستيعاباً لما فى الحياة ، أو لما يجب أن يكون فى الحياة والوجود من حق وجمال

وجلال . ولهذا أيضاً كان من أشد الناس رفقا بالناس وعطفاً عليهم ، حتى ليخيل إلى كل من اتصل به وخلطه بنفسه أنه كان ، من فرط إقباله عليه ، وبشاشته له ، وتفاعله معه فى كل أحداث حياته ، ليس غريباً عنه إنما هو قريب إليه ، بل وبضعة منه .

وكان وديعاً متواضعا دمث الطباع ، يمقت الإعلان عن نفسه فى أية صورة من الصور ، وكذلك كان يبتعد دائماً ، فى نفور شديد ، عن جميع الأضواء التى يسلطها المجتمع عادة على قادة الرأى وأصحاب الرسالات من الأدباء والمصلحين ، كما كان يتحاشى دائماً أن يزج بنفسه فى معترك أى جدال بيزنطى أو نقاش عقيم ، ولكنه بالرغم من هذا كان متحدثاً اجتماعياً من الطراز الأول - بالرغم من تواريه الدائم وحيائه الشديد - لا يكاد يخلو له حديث من دعابة مترفة عابرة ، لا يفطن إليها ، أو يستوعبها ، إلا من دق حسه ، وأرهفت عاطفته .

وكان بحكم دراسته القانونية ومهنته كمحام ، يتقن صناعة الكلام ، أعنى أنه كان متكلماً لبقاً ممتازاً ، متأنقاً فى اختيار عباراته وألفاظه ، وفى طريقة صياغته لها ، كيما تعبر عن المعنى الدسم والفكرة الطريفة والعاطفة المترفة المرهفة ، وكان يملك على السامعين مشاعرهم ، لا بسحر بيانه وقدرته على انتقاء اللفظ المهذب الجميل ، والمعنى الخصب الطريف فحسب ، بل ومقدرته العجيبة على إفحام من تسول له نفسه أن يعارضه أو يقاطعه ، إذ سرعان ما يفاجئه بفكاهة مهذبة خاطفة ، ينفرج لها وجه المعارض أو المعترض عن بسمة عريضة مشرقة ، تنسيه أسباب معارضته ، وتجعل المتكلم المهذب الرقيق سيداً للموقف .

وكان راسخ الإيمان بالله ، جل وعلا ، شديد الثقة بعنايته ورعايته ، ولذلك كثيراً ما حورب من أوغاد لاخلاق لهم ، فلم يهن ولم يتزعزع ولم ينحرف عن إيمانه الراسخ المكين ، أو يتحول عن مبادئه السامية ، ومثله الأخلاقية العليا .

ولقد تقلب طوال حياته فى الدمقس والحرير ، فلم تبطره النعمة قط ، أو تصرفه عن مشاركة المتألمين آلامهم ، ولم ينس يوماً ما حرمان المحرومين ، أو عوز المعوزين ، غير مفرق فى هذا ، مع الأسف ، بين المستحقين منهم وغير المستحقين ، ولذلك فقد طالما نهش يده ، ونال من كرامته ، جائع أطعمه ، ومعوز صان عليه كرامته ، ولكنه بالرغم من كل هذا ظل المحسن « غير البصير » الذى لا يحاول أن يتقى شر من غمرهم إحسانه ، من طغام الناس وأوشابهم غير الذاكرين لفضل الفضلاء وصنيع الكرام والأتقياء ، إذ كان التسامح النبيل ، التسامح الشامل الفسيح ، طبيعة قد ركزت فى تكوينه ، أو عنصراً ركب فى طبيعته وفطرته .

بيد أن هذا لا يعنى أنه كان رجلا غبًّا ساذجاً ، كلا ، فلقد كانت له عين نقادة ، وبصيرة مرهفة متفتحة ، يفرق بهما بين الأصدقاء من المتصلين به وسواهم من غير الأصدقاء . وإن تقدموا إليه وعليهم جلود الحملان أو مسوح الرهبان .

* * *

أخيراً ، لعل أصدق ما تختتم به هذه العجالة ، ما دونه الناقد الفنى الأديب « ريتشارد تشيرش » فى كتابه « المؤلفون البريطانيون فى القرن العشرين » عن مدى تأثير رسالة جلزورذى الإنسانية على الشعوب البريطانية

بل على العالم أجمع ، فقد قال بهذا الصدد ما يلى : « لقد أسدى جلزوردى إلى المعايير الأخلاقية يداً لا تنسى ، إذ دفع أعضاء الهيئة الحاكمة ببريطانيا إلى مراجعة كل فرد لنفسه ، ومحاسبة هذه النفس على أعمالها ، ثم تعديل تصرفاتها ، كما كشف لدعاة المذهب المادى ، عما يشوب المستويات القديمة ، التى قدروها لمختلف القيم ، من اختلال لا يمكن إنكاره ، فكان أن حقق إصلاحاً كبيراً فيما درج عليه أولئك وهؤلاء ، وكان أن أفسحت الإمبراطورية مكاناً لشيء جديد ، ساهمت آراء جون جلزوردى وتعاليمه فى تكوينه ، هذا الشيء هو ما يسمى الآن « بالكومون ولث » البريطانى الذى حل مكان النظام الإمبراطورى البائد الذى دالت دولته إلى الأبد » .

فهرست الكتاب

الصفحة

رقم الإيداع	١٩٧٧/١٦٧٢
الترقيم الدولى	ISBN ٩٧٧ – ٢٤٦ – ٦٠٧ – ٤

١/٧٦/٥٠٨ مطابع دار المعارف – ١٩٧٧

867... 1933.